لا يا غريب



أحمد بن بلال

لا يا غريب

أحمد بن بلال

الطبعة الأولى يوليو ١٩٨٧

الغلاف والرسومات الداخلية

بريشة الفنان انور سونيا



إهداء..

إلى كل جندي في أي موقع كان
من أرض عمان الحبيبة..
أهدي كتابي هذا
وبالله التوفيق،

أحمد بن بلال
بركاء
في يوم ٢٣ يوليو ١٩٨٧م

مقدمة المجموعة القصصية لا ياغريب

ثلاثة جوانب في فن القصة القصيرة في هذه المجموعة،الاطار . . الحدث . . واللغة .

بقلم الدكتور / أحمد درويش

القصة القصيرة فن أدبى حديث لا تمتد جذوره الى أكثر من بضعة عقود من السنوات في عمر الأدب العربى ، وهى أيضا تعد كذلك بالنسبة للأدب العالمي فبدايتها لا تصعد إلى أكثر من منتصف القرن التاسع عشر حين صدرت قصة «المعطف» الشهيرة لجوجول في ١٨٥٦ ، وأعلن كتاب ذلك الفن فيما بعد أنهم خرجوا جميعا من «معطف جوجول» . . وهذه الفترة الزمنية تعد شديدة القصر في تاريخ الأداب خاصة إذا قيست بأعمار اجناس عريقة أخرى كالمسرحية والشعر والمخاطبة ، وهى اجناس تعرف قواعدها الاستقرار منذ عهد أرسطو.

ولقد ترتب على قصر الفترة الزمنية التى اجتازتها القصة القصيرة أن قواعدها لم تستقر بعد في بعض جوانبها على المستوى العالمى ، فضلا عن المستوى العربى والمستوى الاقليمي ، وأن هذه القواعد بحاجة إلى أن تستقى من الأعمال الجيدة للكتاب وتتواءم مع حاجة كل أدب من ناحية ، وأن تربط الجنس الأدبى في مستواه المحلى بقواعد ذلك الجنس أو بما استقر من هذه القواعد في الأدب العالمى من ناحية أخرى .

وإذا كان هذا هو حال القصة القصيرة في الآداب العالمية وفي الأدب العربي بوجه عام ، فإن الأدب العربي في عمان ما زال يقدم مجموعاته الأولى في هذا الفن

الأدبي وهو حديث العهد به نسبيا ومع ذلك فإن هذا الفن بدأ يستهوى مجموعة من الأدباء الشبان العمانين، وبدأت مجموعاتهم القصصية تتوالى الواحدة بعد الأخرى في سنوات معدودات.

وهـا هو احمد بن بلال يعد مجموعته الثالثة«لا ياغريب»بعد أن أصدر في ١٩٨٣ مجمـوعتـه الثـانية: «وأخرجت الأرض». . وكانت قد سبقتها باكورة انتاجه «سور المنايا» سنة ١٩٨١، والمجموعات الثلاث تشكل في مجملها بحثا ذاتيا مستمرا عن الشكل الصحيح الفنى لكتابة القصة، وهو بحث لابد من الاعتراف بأنه يتطور من مجموعة إلى أخرى سواء في مجال التصور الفنى لمعنى القصة القصيرة ولأطرافها الزمانية والمكانية، أو لامتاع القارىء من خلال اختيار لون يعنى من الأحداث وتطويره والصعود به نحو مجال العقدة ومن ثم الهبوط نحو الحل، أو اختيار اللغة التي يعتقد الكاتب أنها هى اللغة الأدبية المناسبة لذلك النوع من الفن.

وفيما يخص الاطار الزمانى والمكانى للقصة القصيرة فإن المجموعة التي بين يدينا تقترب غالبا من التصور الصحيح لاطار القصة القصيرة، وهو ذلك الاطار الذى يعتمد على اختيار «لقطة من الحياة» محددة الأبعاد الزمانية، وتتحرك في إطـار مكـاني يمكن تصور حدوده وأبعاده، ومن هذه الزاوية فإننا يمكن أن نلاحظ أن قصة مثل «الحبل» تمتد أحداثها في «الهزيع الأخير» من ليلة معينة وهذا هو إطار الزمان، ثم تمتد بين البيت والحقل المجاور وهذا هو إطار المكان، ونفس الأمر يمكن تصوره في قصة «لا ياغريب» التي تمتد زمانيا على مساحة نصف نهار وتمتد مكانيا في حركة متخيلة بين مكتب العمل والمطار، وإن كانت هناك «ذيول» مكانية وزمانية تمثلت في «المحاكمة» وكان يمكن من الناحية الفنية

تلافى هذه «الـذيول» من خلال جعـل المحكمـة هى «بؤرة» الحدث نفسه، والامتداد منها من خلال الطرق الفنية المعروفة في القصة القصيرة، إلى الزمن الماضى، مثل وسيلة «تيار الوعى» أو «استرجاع الذاكرة»، فالواقع أن محدودية الاطار الزمنى في القصة القصيرة لا يمنع الكاتب المتمرس من أن يتحرك من خلال هذا الاطار المحدد حركة فنية محسوبة يتم من خلالها التعرف على الكل من خلال الجزء كما يتم معرفة خصائص الجسم الكامل من خلال تحليل خلية واحـدة من خلاياه، واذا كانت هذه المهمة الأخيرة لا يمكن أن يقوم بها الا مشرح متمرس ومحلل دارس، فإن فن اختيار اللقطة المعبرة كذلك في القصة القصيرة تحتاج إلى متذوق وفنان وتحتاج مع هذا إلى قراءات كثيرة متأنية سواء في دراسات النقد التحليلية أو في كتابات كبار الأدباء.

اذا كانت لقطة الزمان والمكان المحددين تمثلان لحظة البداية ولحظة النهاية، فإن ما بين البداية والنهاية يمثل «جسد» القصة، والمجالات الرئيسية للحكاية التي يبلغ من خلالها الفنان رسالة معينة إلى قارئه، وهذا المجال شديد الاتساع والتنوع، يختلف من كاتب إلى كاتب ومن مستوى أدبى الى مستوى أدبى آخر، فقد يكون هذا المجال فرصة تتقدم خلالها الحكاية تقدما أفقيا وتتابع جزئياتها لكى تشكل كماً من المعلومات يستجيب لرغبة القارىء في الوصول بقصة ما إلى مداها، وذلك النمط هو الذي يشيع غالبا في القصة التقليدية، وقد يكون ذلك المجال فرصة للتعمق الرأسي بمعنى أن كاتب القصة لا يهتم بتراكم الأحداث بقدر ما يهتم بتعميقها واتخاذها وسيلة لتحليل لحظة تمر بها النفس البشرية دون تركيز الجهد على اشباع الفضول الطبيعي لمعرفة تطور الحكاية، وذلك النمط هو الذي يشيع عادة في القصة الفنية وتميل اليه القصة الحديثة.

لكن هذا المجال يكون في احيان أخرى فرصة لحركة من نوع مختلف لا تهتم بالتقـدم الأفقى المباشر، ولا بالتعمق الرأسى المباشر، ولكن تهتم بالالتفاف وتشد اهتمام القارىء من خلال طرف من الخيط تخفيه وتقدم ايماءات حوله من حين إلى حين، وتجعـل القـارىء يشـترك مع القاضى في البحث عن الخيط المختفى أو السر الغامض وعندما تصل العقدة في هذا النوع إلى مداها يشتد فضول القارىء وعندما تقدم له نهاية القصة الحل الذى لم يكن يتوقعه عادة تشتد دهشته ويتركه الكاتب فاغر الفم، وهذه الطريقة تشيع عادة في «القصة البوليسية» وهو تعبير فنى أصبح يطلق على هذا النوع حتى ولو خلت القصة من رجل «البوليس» أو الشرطة، ويشيع هذا النوع لدى طائفة معينة من طوائف المثقفـين، ويكثـر اقبـال الشبـاب في بدايات حياتهم على قراءة «القصص والروايات البوليسية» المترجم منها والمؤلف.

إلى هذا النوع الأخير من القصص يميل كاتبنا غالبا، فكثير من قصص هذه المجموعة والمجموعات السابقة يقترب من فلك «القصة البوليسية». وهذا النوع من القصص يحتاج أكثر من غيره إلى احكام «الحبكة» الفنية، لانها في الواقع هى التي تعوض عن كثير من أوجه الجمال الفنى التي يضحى بجزء منها غالبا في سبيل الوصول إلى عقدة وحل محبوكين، ففي قصة «الحبل» التي ترد في هذه المجموعة يبدو التركيز منذ العنوان موجها إلى السر الغامض، و «الحبل» كلمة غامضـة يمكن أن تحمـل في اللغـة كثيرا من الايحـاءات، ولعـل أكثر هذه الايحـاءات ما تعـرفه اللغة من ارتباط «الحبل» بعملية الاعدام عندما يجرى الحديث عن «حبل المشنقة» أو ما تعرفه عن ايحاء «الحبل» بالأصل باعتباره خيطا يربط بين شيئين ويمكن أن يقود طرفه المجهول إلى شىء جديد، أو ارتباط

«الحبل» بالانقاذ باعتباره صلة تمد إلى من هو في حاجة إلى عون. . وهناك كثير من الايحاءات المرتبطة بالكلمة، لكن الكاتب هنا يختار من بينها رمز «العقاب» عن طريق الضرب بالحبل وربما كان هذا الرمز من الرموز التي لا تفد على الذهن مباشرة عند التعرض لاستخدام الكلمة، وذلك جزء من طبيعة عنوان «القصة البوليسية».

تتابع أحداث قصة الحبل. فتقودنا نحو شاب مخمور يعود إلى بيته على مشارف الفجر ومعه رفاق السوء يتوكأ عليهم وهم يدفعونه الى البيت دفعا ثم يطالبونه بأن يأمر أباه بشراء سيارة له تعود به أو يعود بها إلى البيت، والأب يصدم بهذه الصورة فينسحب إلى مكان قصى في حقله ليصلى الفجر واذ بابنه يأتي وراءه إلى الحقل في هذه اللحظة (رغم أنه عاد متعبا ومن شأنه أن يستلقى بعض الوقت) ويطالبه على الفور بشراء سيارة، ويكون الأب قد أخرج حبلا من مكمنه القديم وعندما يدخل مع الابن في حوار عنيف حول سلوكه ينتزع الابن منه الحبل ويهوى به على ظهر الوالد، ويستسلم الوالد للعقاب ويرى أنه قصاص عادل (!!) لانه كان قد ضرب أباه بنفس الحبل وفي نفس المكان منذ خمسة وعشرين عاما.

إن القصة في مثل هذا النوع من الأحداث «البوليسية» تضحى كما رأينا ببعض جوانب الحبكة الفنية ولكنها في مقابل ذلك تستجيب لميول القراء الذاتية في متابعة الحدث والوقوف على مفاجآته غير المتوقعة، والمتعة التي يقدمها هذا النوع من القصص يمكن أن توصف بأنها سلاح ذو حدين ومن الطبيعي أن تكون محل اهتمام الكتاب في فترة زمنية محددة وأن يتم تجاوزها سعيا إلى الابداع في مجالات القصة القصيرة الأخرى.

إن هذا اللون من الاهتمام الذى يبديه كاتبنا لفن القصة البوليسية ربما بدا أكثر وضوحا في القصة القصيرة ـ الطويلة: «اليد الخفية»، ومعنى القصة البوليسية هنا يتحقق بقدر أكبر بوضوح، فما دامت هناك جريمة قتل تكتشف في مراحل مبكرة من القصة فلابد لهذه الجريمة من مرتكب ومن دافع والكاتب يحاول في البداية ـ ويوفق في هذا ـ أن يلفت أنظارنا عن الدافع الحقيقي وعن المرتكب الحقيقي من خلال تركيز الاهتمام على النقاش الحاد الذى يحدث داخل سيارة الأجرة، ولكن الأحداث تتقدم وهى تحمل في طياتها الكثير من المفاجآت، وتسلمنا كل دورة من هذه الأحداث إلى تقديم شخصيات جديدة، ودوافع لم تكن في الحسبان، ولابد أن نعترف للمؤلف هنا بأنه يتمتع بقدرة طيبة على تتبع التفاصيل والجزئيات والالمام بالمواقف الدقيقة، كما هو الشأن في حركته داخل شركة التأمين وكشفه عن حقيقة الوثيقة التأمينية، لكننا لابد أن نلاحظ في الوقت ذاته أن تشابك الشخصيات وكثرة المفاجآت، يكتر القارىء يحس في بعض الاحيان أنه قد توغل في غابة كثيفة، تشابكت فيها الأغصان المثمرة حول رأسه، ومع التسليم بإمكانية جودة الثمر وأهميته فإن كثرته في بعض الأحيان ربما تحجب الرؤية الواضحة عن العين، والاستكشاف الصافي أمام البصر.

إذا كنا قد تناولنا جانبين من جوانب القصة القصيرة من خلال ما تقدمه لنا هذه المجموعة، فإن هناك جانبا ثالثا وأخيرا ينبغي أن نلقى عليه نظرة سريعة قبل أن نترك القارىء يلتقى مباشرة بالعمل الفنى، وهو جانب «اللغة» ولا نخفي أن اللغة عنصر شديد الأهمية في الأعمال الأدبية جميعا، فإذا كانت اللغة في الحياة العادية للمرء وسيلة توصيل، وأداة يراد بها مجرد حمل الأفكار فإن اللغة

في الأدب عنصر يراد لذاته ويوجه له أكبر قدر من الاهتمام بل ويشكل لدى الكثير من المذاهب النقدية العنصر الرئيسي في العمل الأدبي وكما أن الألوان هى أداة الرسام الأولى وإذا لم يتم حسن اختيارها فسد العمل كله أيا كانت جودة الأفكار وحسن النوايا، فإن الكلمات أيضا هى أداة الكاتب الأولى ويترتب على سوء اختيارها ما يترتب على سوء اختيار الألوان في اللوحة.

وكما أنه لا تصلح كل درجات اللون لكل اللوحات، وانما ينبغي أن يختار لكل لوحة درجة تناسبها، كذلك لا تصلح كل الكلمات الجميلة لكل الأعمال الأدبية بنفس الدرجة، فقد تكون صيغة ما مقبولة في الشعر وغير مقبولة في النثر على اختلاف درجاته، وقد تكون جيدة إذا كتب في مقال تحليلي ولا تكون كذلك اذا كتبت في قصة قصيرة، ومن هنا فإن حساسية اختيار الكلمات «الجميلة» تزداد كلما أردنا أن يكتسب العمل الأدبي مزيدا من الدقة والجودة.

وإذا كان هذا شأن اللغة الأدبية بصفة عامة فإن لغة القصة القصيرة تبدو أكثر دقة وأرهف حسا، ومع أنه لا يوجد هنالك قانون صارم للحدود اللغوية المقبولة أو المرفوضة في هذا الجنس الأدبي - فإن استقراء أعمال كبار الكتاب في هذا المجال يمكن أن يعطينا مجموعة من المؤشرات لخصائص هذه اللغة، مثل الميل إلى استخدام الجمل القصيرة ذات الايقاع السريع، والاستغناء غالبا عن أدوات الربط بين الجمل المتتالية، واختيار الصور المكثفة الحادة، والميل عند كثير من كتاب القصة القصيرة، إلى أن تكون بعض جملهم قريبة من لغة الشعر حتى في الموسيقى، وهذه الخصائص لا تكتسبها اللغة عفوا ولا لذاتها، وانما لأنها خصائص تتناسب مع الهدف الذى نريد القصة القصيرة أن تؤديه من تكييف المشاعر وتوجيهها نحو هدف معين وحول موقف معين.

ولغة المجموعة التي بين يدينا يتحقق فيها بعض من شروط اللغة الجيدة في القصة القصيرة دون شك، وتقتصر إلى بعضها الآخر دون شك كذلك فمن السمات الجيدة هنا، القدرة على تتبع التفاصيل الدقيقة ورسم لوحات محسوسة من خلالها. ويمكن أن نلاحظ هذه الظاهرة على نحو خاص في مفتتح معظم القصص، حيث يكون الكاتب محتشدا للحظة البدء مختزنا للصور التي تشكل الخلفية العامة: «سجى الليل وأخذ ينشر ألويته السوداء الثقيلة على المدينة . . . ويد مخضبة بالحناء تحتضن وجها عبوسا، غرس مرفقها على فخذه كالوتد وغدت أشبه بالمثلث.أو مثل أن نجد في مطلع آخر: «كان حلما جميلا دغدغ أعماقه فأيقظه من سباته العميق قبيل الفجر. . ومن فوره اتجه نحو نوافذ الغرفة الخشبية ففتحها، وأخذ الهواء الحبيس يتهادى في أرجاء المكان يهفهف الستائر الرقيقة المصنوعة من الأقمشة العادية ويموجها على الجدران البكم في صمت لا يخلو من الأنغام التي تعجز الآذان عن التقاطها وتميزها إلا بصعوبة».

لكن ما يمكن أن يؤخذ على لغة هذه المجموعة، هو اغراقها فيما يمكن أن يسمى باللغة الرومانسية دون داع في معظم الأحايين، ومع أن الصيغ اللغوية التي تختار في هذه المواقف قد تكون جميلة في ذاتها إلا أنها لا تضفى على العمل جمالا، بل إنها على العكس قد تعطل نموّه وتقدمه أو تتناقض مع مضمونه؛ في أحد المواقف المحزنة في قصة الحبل عندما يكتشف الوالد أن ابنه يعود إلى البيت مخمورا، وينسحب هو إلى الحقل حزينا مقهورا: «يتكىء على جذع الشجرة الضخم كالذى أنهكه التعب والاعياء، بينما أخذ الصبح يمزق الرداء الباهت ويكشف أسرار الكون وجمال الطبيعة» وواضح أن صفة «جمال الطبيعة» لا تناسب الموقف على الاطلاق بل تتصادم معه.

وعندما يلتقى رجلان للمرة الأولى في قصة «ضحية الشهر الرابع» ويركبان معا سيارة. . ولا يجد أحدهما كلمة يفتح بها الحديث، ويكسر بها حدة الصمت، ويتوقع القارىء خلال هذا الموقف أن يقول أحدهما للآخر كلمة مقتضبة مثل: «إن الجو حار». . أو «هذه المنطقة وعرة». . الخ . . ونفاجأ أن أحدهما يبدأ الحوار بهذه الجملة: «إن هذا الغسق الغامر الذى يلف هذه الصحراء الواسعة يبعث النشوة في الصدور ويجعل ليالى المرء أشبه بالحلم الرائع البهيج في هذا الأفق الشاسع» إن هذه الجملة الطويلة نموذج لفكرة أن جمال اللغة ليس جمالا مطلقا وانما هو جمال نسبى يتجدد تبعا للموقف الذى تختار الكلمات له.

ان الولع بإيراد الكلمات الجميلة في ذاتها يدفع الكاتب في كثير من الأحايين إلى أن يورد من الصفات مالا يريد وإلى أن يضخم الموقف في كثير من الحالات اكثر مما ينبغى؛ في أحد المواقف في ختام قصة المجنون، يباشر رجل الشرطة التحقيق ثم يدق جرس الهاتف في مكتبه، ورنين الهاتف قد يكون مزعجا ومفاجئا إذا دق في حجرة النوم في الثالثة فجرا، لكنه عندما يدق على مكتب شرطي أثناء عمله يدهشنا أن يصور على هذا النحو: «وعلى نحو مفاجىء أخذ رنين الهاتف يمزق هدأة الصبح . . وانسابت كلمات المتحدث عبر أسلاكه كالسيل . . وبراكين الحسرة قد كبحت جماح العزة والكبرياء في نفسه».

إن هذا النوع من الأداء للغوى ينتشر في كثير من قصص هذه المجموعة وفي انتاج احمد بلال بصفة عامة، وهو يجعل الحدث القصصى في كثير من الأحيان يبدو وكأنه يتقدم بخطى راقصة بدلا من تحركه بخطى ثابتة، ويجعله في أحايين أخرى يلف حول نفسه ويقدم انطباعات لعلها ليست هى التي يريدها الكاتب

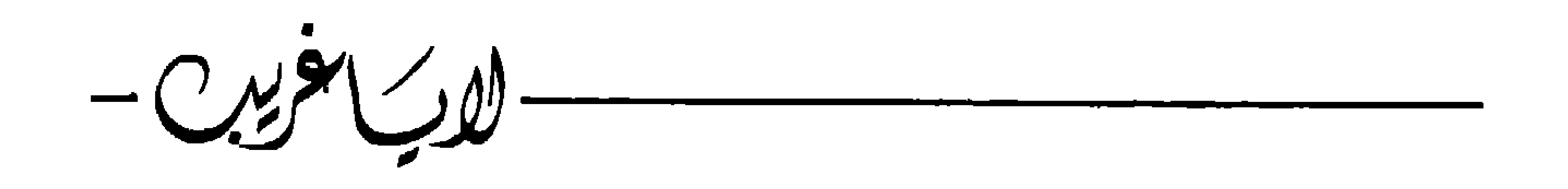
على وجه الدقة.

لقد ركزت على هذه اللقطة الأخيرة لانني اعتقد أنها سلاح ذو حدين، فقوة اللغة وجمالها شيء مطلوب، والكاتب يملك الكثير من الطاقة في هذا المجال لكن توجيه هذه الطاقة وحسن استغلالها وعدم تعارضها مع العناصر القصصية الأخرى، وايرادها في تناغم وانسجام معها هو الذى ينبغي أن يبذل في سبيل الحصول عليه مزيدا من الجهد.

وبعد.. فلقد سعدت قبل القارىء بالنظر في هذه المجموعة، وأنا أعتقد أنها تستحق من القارىء كل العناية، وتعده بقدر كبير من المتعة، وهى قبل كل شيء تمثل خطوة هامة من خطوات الابداع في فن القصة القصيرة في الأدب العماني وتبشر بكل الخير لهذا الأدب وذلك الأديب.

أحمد درويش

مسقط في ١٠/ ٥/ ١٩٨٧م


لاأيا غريب

لا . . يا غـــريـب

جفل كالجواد الجامح من سباته على أطلال حلم مفعم بالكوارث، وانتابه شعـور بالمـرارة العميقة. . فتلك هى المرة الأولى التي يتجرأ فيها موظف من موظفي المؤسسة التي يديرها ويجاريه في النقاش بجدارة فائقة. . بل ويصل به الأمـر الى التحـدى. . فالأسطوانة السائدة كانت لا تتعدى الكلمات المألوفة نعم. . طبعا. . وأنك على حق. .

وحمل (كرسلى) نفسه على الأعتقاد بأن الشهادة الجامعية التي حصل عليها (خليفـة) مؤخـرا عن طريق الانتسـاب. . وما تلاها من تعيينه مديرا لقسم الحسـابات، هى التي جبلت نفسه بتلك الجرأة وذلك الأقدام. . وعلى نحو مفاجىء تململ على سريره وهو يجتر تلك الأحداث. . وافتر ثغره عن ابتسامة صفـراء عنـدما ذهبت به الأنانية التي يتمرغ فى وحلها بتفسير قدرات خليفة وامكاناته بالعقم والعجز. . بل وراح يقنع نفسه الانتهازية الى تصوير الوجوه السمـراء بأرومة صحراوية لا تسمح لهم سذاجتهم بتعدى كثبانها وجمالها. . وستظل عاهتهم البشعة بأمس الحاجة الى عبقريته المتوقدة وخبرته الفذة اللتين لا غنى عنهما. .

* * *

عنـدما توسط الحديقة الشامخة بأنفها على ربوة خضبتها حمرة الصبح. . . أذكى جمالها الرائع في أعماقه الشوق الذى طالما ألهب فكره وإحساسه وسبب له السهد والأرق في أوائل الليالي بالدخول في زمرة مجتمع المال والعقار. . فطغى ذلـك العشق على فؤاده حتى عربـدت آمـاله وأمانيه. . وخيل اليه انه يكاد يلمسها لمسا ويرى ملامحها ماثلة ولم يبق الا أن يضرب بازميله حتى تكشف كنوز قارون عن نفسها. . وأخذ بريق النشوة يومض أفكار المجد والسلطان في

رأسه فيما يشبه الحلم البهيج .

انتبه للوقت الذى يوشك فيه اكتمال عقد موظفيه بقدح الشاى الذى تعود (الفراش) أن يقدمه له في موعده كل صباح . . فهيئته التي تنم على الفظاعة والهلع وسجاياه الغليظة كانت جديرة بجعل جميع العاملين تحت رحمته يبكرون بالجلوس خلف مناضدهم . . فهو يشعر بالابتهاج حين يشم رائحة المذنبين . .

عندما وصل الى مكتبه أخذ يطل برأسه كالعادة على جميع المكاتب ومن فوره شعر بلحظة الظفر للأنتقام من خليفة عندما لم يجده في مكتبه وما كاد يوصد الباب حتى تراءى له قادما في التو . فأخذ يصب عليه سيلا من اللوم والتعنيف والزجر لتأخره . . رغم شعوره الباطنى بشرعية العذر الذى قدمه . . وبصوت حاد كالسكين أردف قائلا :

يبدو أن الجذور لا تضرب أعماق التربة دون عناية واستعانة . . فقاطعه خليفة بنبرة رصينة تنم عن قوة التحدى :

ان العظة المستخلصة عبر تاريخنا الطويل تقول بأن الخميرة هى التى تحدد تخمر العجينة . .

فامتقع وجهه من شدة الحنق والغيظ . . وشعر بالثغثغة . . فانسحب الى مكتبه . . وما كاد يجلس حتى خمدت عواصفه حين وجد على طاولته ظرفا من مجلس ادارة الشركة . . وبغتـه غمرت حمرة الحقد والكراهية معالم وجهه من جديد . . وأحس بضربة قاصمة للظهر عندما أدرك بأن المؤسسة غير راغبة في تجديد عقده الذى أوشك أن يلفظ أنفاسه ، فغاص بجماع فكره في متاهات البحث والتنقيب عن طريقة لتحقيق أحلامه العريضة قبل الرحيل . . حتى لاح في آفاقه فرصة النيل . . ومن فوره بدأت أذيال الرسائل الموقعة من قبل مدير



الحسابات ومدير الرواتب شغله الشاغل. . فأذكت آماله ملكتى الملاحظة والدهاء في نفسه.

* * *

عندما دخل عليه خليفة ذات صباح استقبله بابتسامة مشرقة وتجاوب عميق مع المسائل الخاصة والعامة. . ورغم أن اللقاء لم يدم الا برهة وجيزة الا أن خليفة تمكن بحدسه وخبرته من قراءة الرقة المصطنعة التي كانت تغلف وجهه. . ففى ذلك اليوم خرج عن طوره المألوف. . لكنه لم يقو أن يخفى الخبث الذى يعتلى ناصية وجهه. . رغم انفراج شفتيه عن بسمة مصطنعة ذاوية. . وكان أشبه بشخصية غامضة يلتبس على الرأى فهمها. . وسبر أغوارها. . فقد كان حريا أن ينئى أى موضوع يثير ضغينة الآخرين. . بل لم يتورع الى الملق والمداهنة اذا دعت الظروف وقبيل أن يخرج خليفة هب واقفا وتمتم بصوت خفيض يشوبه الأطراء:

لقد عشقْتَ الحياة فرفعت لك راياتها. . وغدوت أجدر أنسان في هذه المؤسسة الواسعة يتسنّم ذُرا المجد. .

ثم مد ساعده وناوله ظرفا، واستطرد قائلا وهو يشير الى الظرف:

في أعماقه تكمن الثمرة اليانعة لكفاحك المضنى. .

فعبر الآخر عن عرفانه بابتسامة مهذبة. .

دلف خليفة الى مكتبه وأخذ هو يجمع شتات أوراقه الخاصة، وخرج خلسة بعد أن خطم أعصابه. . وعلى بعد بضعة كيلو مترات من مبنى المطار قدم لأحد موظفى البنك شيكا. . ثم أخذ يرتجل الحديث بطريقة تهش النفس. . لكن الموظف سرعان ماستأذنه ليكمل إجراءات صرفه. .

دهش مدير البنك من الرقم الذارى الذى يحتويه الشيك. . فأخذ يفحصه

بدقة فحص المتشكك . . ثم أمر بصرفه رغم الأرتياب الذى أنتابه والذى لم يجد له مبررا . . بينما كان «كرسلي» يوزع نظراته خلسة هنا وهناك بين الفينة والفينة ومرت دقائق مفعمة بالقلق . . وتسلطت عليه هواجس غامضة . . لكنه عندما أخـذ يلقى ربط النقود فى حقيبته تقاطر اللعاب من زاويتى فمه . . وأخذت الشهوة المجنونة تدمدم في رأسه وتصور له الحياة الرغدة التى تنتظره . .

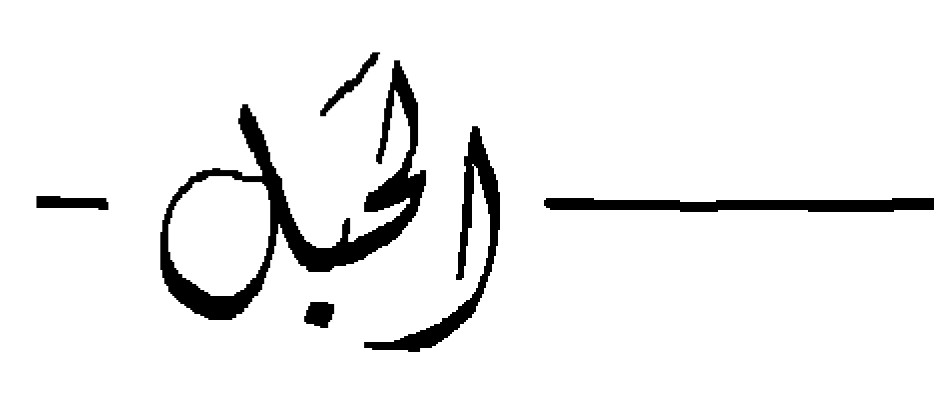
وما كاد يقفل عائدا حتى رفع مدير البنك سماعة الهاتف واذا بالمتحدث مدير عام المؤسسة يبلغه عن فقدان ورقة من دفتر الشيكات الخاصة بالمؤسسة واعترى الذهول خليفة عندما أبلغه مدير البنك . . بأن الشيك يحمل توقيعه وتوقيع مدير الرواتب . . وقد تم صرفه في التو . .

* * *

قبل أن تطأ أقدام «كرسلى» سلم الطائرة شعر بيد تطرق منكبه العريض . . فارتعدت فرائصه وعندما استدار استقرت نظراته في اللحظة على القيد الذى كان يحمله الـطارق فأصيب بالشلل أو كاد . . ولم ينبس ببنت شفة الا أنه أحس بالنار المتأججة التى اشتعلت في كيانه . . واخذت تفترس أحلامه . .

وقبل أن تصدر المحكمة حكمها قدم خليفة ملفه الطبى . . مع تقرير سرى صادر من طبيبه الخاص الى المدعى العام . . وفي اليوم التالي وقف «كرسلي» في قفص الاتهام . . وأخذ يستمع الى المرافعات الأخيرة . . وعلى حين غرة عمت السكينـة . . واذا بالقـاضى يقـول: حكمت المحكمـة على المتهم «كـرسلى» بالسجن لمدة عامين مع وقف التنفيذ . . لاعتبارات انسانية أثبتها التقرير الطبى الذى قدمه مدير عام المؤسسة التى كان يعمل بها . .

عقـدت المفـاجـأة لسـان «كـرسلى» ولم يقو على التلفظ . . الا أن عبقرية الصحراء ظلت تحوم في رأسه كفرسانها فى حومة الوغى .


الحبل

« الحبـــل »

كأن حلما جميلا دغدغ أعماقه فأيقظه من سباته العميق قبيل لوحة الفجر ومن فوره اتجه نحو نوافذ الغرفة الخشبية ففتحها وأخذ الهواء الحبيس يتهادى في أرجاء المكـان يهفهف الستـائـر الرقيقة المصنوعة من الأقمشة العادية ويموجها على الجدران البكم في صمت لا يخلو من الأنغام التى يعجز الآذان التقاطها وتميزها الا بصعوبة . بينما انكب هو على ركبتيه واطلق العنان لنظراته من خلال تلك النوافذ على أشباح النخيل الفارهة العالية والواقفة في جلال ووقار في الظلمة أخذت رايات الفجر تقشعها وتبددها وتبرز شيئا فشيئا جمالها ومفاتنها . وظلت ابصاره مصوبة كأنها تنقب عن موضع معين في تلك الغابة التى غصت بضروب من الأشجار الواقفة بتلك الصورة الرائعة من جراء جهد وكفاح ونضال ابيه مع الأرض والأيام طوال السنين حتى أصبح جسده جزء من قشرة تلك الأرض التى تقف عليها تلك الأشجار الشابة المثمرة فراح طيف والده يتمثل حيا أمام أبصاره وهو يمسك بالمسحاه يغرسها هنا وهناك وأخذت الذكريات المرة التى تغلفها الأحزان تبرز وتطفو حتى اشتدت وطأة القهر في نفسه فأغرورقت مقلتاه بالدمع وأخذت تفيض عبر الأخاديد التى حفرها الزمن على وجهه المغضن . ثم هب واقفـا وأخـذ يجر أقدامه ببطء حتى خرج الى فناء تلك الدار الواقفة فى تواضع بين صنوف من الأشجار. فشخص ببصره الى السماء وأخذ يرنو نحو نجوم الصبح الباقية بينما أخذت شفتاه تهمهم دعاء عذبا تخشع له القلوب فى ذلك السكون الساجي .

وعلى نحو مفاجىء توقفت شفتاه عن الحركة عندما وقفت سيارة ينبعث منها

ضجيج مزعج مزقت هدأة الفجر وسكونه فدلف الشيخ العجوز نحو الغرفة من جديد ومن خلال تلك النافذة المفتوحة وقعت أبصاره على جمع من الشباب. . وكم كان ذهـوله حين رأى بين القوم ابنه يترجل من سيارة أقرانه وقد تعتعته السكرة حد الأنهاك. . وسرى همس الى اذان العجوز مصدره أحد نظراء ابنه يقول:

حث أباك ليشترى لك سيارة. . فهز الآخر رأسه بالايجاب ثم واصل سيره وهو يترنح كقضيب القمح في مهب الريح. . فعصرت الآلام أكباد والده من ذلـك المنظر واخذت فقاقيع الغضب تنبت في جوفة لكنه اعتصم بالشجاعة والصبر فهدأت عواصفه ونامت رياحه ثم خرج. . وأخذ طريقه نحو المصلى الذى أقيم في وسط المزرعة فتوضأ وأدى صلاة الفجر ثم شخص نحو صندوق خشبى وأخرج منه حبلا غليظا فأخذ يقلبه بين يديه وهو يغمغم في صوت خافت عبـارات مبهمـة حتى غلبت عليه عواطفـه الكـظيمـة فذرفت عينـاه الدمع الهتـون. . . فعكر صفوه وخلوته خطوات سريعة مقبلة نحوه فأدرك بحدسه صاحبها فمسح دموعه وأتجه ليستقبل جاره الذى تعود أن يأتيه يوميا في ذلك الوقت ليصلى في مرزعته والحبل لازال بيده. . . لكن صديقه داود لم يسأله عن سبب حمله ذلك الحبل القديم الذى يزيد عمره عن خمسة وعشرين عاما رغم الفضول الذى يتصف به فمضى في طريقه للصلاة. . بينما أتجه هو نحو موضع آخر من المرزعة. . . وساقته قدماه الى شجرة (بيذَام) وهى أكبر شجرة تتوسط المزرعة تمتد أغصانها كالأم التي تحتضن صغارها. . فاتكأ على جذعها الضخم كالذى انهكه التعب والأعياء بينما أخذ الصبح يمزق الرداء الباهت ويكشف اسرار الكون وجمال الطبيعة. . وكل شىء حوله يوحى بالهدوء



وأخذت نفسه تنفعل لتلك السكينة وتجتر حوادث الأيام البالية . . وأخذ طيف والده يفرض نفسه بصور شتى فتارة يراه كالنسر العظيم يداعب اعذاق النخيل الساجدة فى بهجة الفلاح الجانى لمحصول وفير . . وتارة يراه يلتوى من الآم السياط الموجعة فيخفق قلبه وجعا ووجلا من الأيام القادمة .

وفي خضم تلك الصور المروعة التي نسج عليها الدهر ستائر النسيان أخذ فكره ينبش وينقب عن المزيد والمزيد فى أركان وزوايا السنين فبرزت له صورا حين كان طفلا يهرول ويطير كالفراشة بين (عواضد) النخيل (البكس) والتى أرتخى بعض من سعفها في شكل أقواس معانقة الأرض وكأنها في رجاء وتوسل تريد غذاء من أعماق التربة كى لا تموت وتنفصل عن أحضان الأم .

فقادته تلك الصورة أو اللوحة الى الموضع الذى يقف فيه وأخذ ينظر الى الحبل الغليظ الذى لازال يمسك بأحدى اطرافه فشعر في أعماقه بالذل المهين . . والعذاب القاتل كاد يجرف كيانه ويسقطه أرضا . . فزفر زفرة حرى من شدة الحزن والكمد بينما تمكنت عيناه من رؤية شبح يتحرك بين الأشجار فأخفى الآمه وتصنع برباطة الجأش . . وبعد هنيهة اتضحت صورة ابنه القادم وهو يترنح بين الأغصان فازدادت جروحه الخفية عمقا وما أن دنا منه حتى كادت عيونه توحى بالتفتق من شدة احمرارها الناتجة من السكر والسهر . . وبلهجة يمازجها التأتأة قال : أريد أن تشترى لى سيارة شأنى في ذلك شأن زملائى الآخرين . .

بلهجة حازمة :

وهل امثالك أكفاء لقيادة السيارة يامحسن؟

- أترى في عيبا . . ؟

- أهناك أعظم من العيب الذى أنت فيه؟
- تقصد بأنى سكران اليس كذلك؟
- أنا
فقاطعه ابوه بلهجة عاصفة:
وهذا السكر أفقدك رشدك... وبخر حياءك.. وخجلك.. وانتزع منك صفة الأدب والأخلاق.. وساقك جنونك الى هنا كى تخاطبنى بلهجة الأمر تطلب سيارة.. منفذا بذلك كالعبد المطيع وصايا أقرانك..
الأبن وعيناه تقدحان شرا.
لقد سئمت العيش في تلك الدار الحقيرة التى تتداعى للسقوط.. أن هذه المزرعة يجب أن تباع.. ويجب أن..
- أخرس ايها الأحمق الملعون.. ان هذه الأشجار الواقفة والتى تأكل من خيراتها رواها أبى بعرقه.. وتارة بدمائه والذى يروى بالدم والعرق غير قابل للبيع..
فاستيقظ الوحش القابع في أغوار الأبن وقال لأبيه بلهجة مليئة بالطعن والتجريح..
انك تتكلم عن العرق والجهد بل وحتى عن الفضيلة والعفة والوقار ويدك ملوثة بالأثم والجرائم الشنعاء... ولا زال الدليل بيدك هو ذلك الحبل المعلق في معصمك.. اتذكر الحبل حين..
فشعر الشيخ بطعنة نجلاء تتغلغل في أعماق نفسه الواهنة فرفع يمناه ولطم ابنه بكل قواه.. وما كان من الأبن الا أن انتزع ذلك الحبل من يد والده وأخذ يلويه بعنف على ظهره النحيف وهو ينعته بشتى النعوت القاسية فمس ذلك الهرج أذنى داود الذى فرغ من صلاته وأخذ ينتظر صديقه فاتجه مسرعا

نحوهما . . لكن بشاعة المنظر جعلته يتسمر في مكمنه من فرط الدهشة . .

وعقدت لسانه وأطرافه عن الحركة الا أنه مالبث أن استعاد قواه فزمجر. كنقع الرعد في وجه الأبن . . فقاطعه صديقه العجوز وهو يتمرغ على التراب من لوعة آلام السياط في توسل وبصوت يقطعه الآهات ونشج البكاء والحسرة . . دعه . . أنه ليس ضربا بل دواء يشفى جروحا كظيمة في أعماقى . . لقد ضربت أبى بنفس الحبل وفي نفس هذا الموضع الذى اضرب فيه قبل خمسة وعشرون عاما . . .

* * *

ضحيـة الشهـر الرابـع

أخذ يضرب بقبضته مقود السيارة وهو ينفث دخان السيجارة التي أوشكت أن تعانق عقبها. . . ويصب اللعنات على ذلك اليوم الذى اختار فيه اجداده تلك القرية (الواقعة عند أرباض الحدود والنائمة في أحضان شبكة من الصخور الـرمـادية وكـانها سجن أعـدته الطبيعة بعناية للمجرمين العتاه) كموطن. . وحدث نفسه (الى متى تظل طقوس هذه الرحلات الاسبوعية قائمة في حياتي. .) ؟

دفعة الضيق والملل الى ايقاف السيارة. . . فارتجل منها. . وانحنى جانبا وتلاشت السآمة التى كان يعانى منها فى خضم ذلك الحزن الشاعرى الذى كان يضفيه نور القمـر الـواهن في هدأة تلك الليلة الساكنة. . . لكن وقع اقدام سريعة جعلت نظراته تصول وتجول في ذلك الفضاء الرحب. . حتى استقرت على شبح يهرول نحوه من بين اعراق الرمل وبانفاس لاهثة القى السلام ثم غمغم:

هل لك ان تأخذني:

وانبسطت اسارير الآخر بالرضا وهتف من فوره:

اننى اتـرقب من يخفف عنى وطـأة هذا الطريق الذى يكاد أن يكون بلا نهاية. . وبنظرة فاحصة استشف من هيئته ما يوحى بالقلق.

* * *

اخذ ينبش في ذخيرة رأسه عن طريقة يفتح بها فاه صاحبه وهو يطوى الطريق الموحش الذى يغلفه الظلام حتى ومضت في رأسه فكرة فتمتم:

أن هذا الغسق الغامر الذى يلف هذه الصحراء الواسعة يبعث النشوة في الصدور. ويجعل ليالي المرء أشبه بالحلم الرائع البهيج في هذا الافق الشاسع.

فعقد الاخر ساعديه على صدره وقال بعد صمت:

يبدو انك سئمت ضجيج المدن وصخبها فهشت نفسك هذه السكينة:

تململ السائق في جلسته والقى على صاحبه نظرة من طرف عينيه ثم انشأ يقول:

ان الجمال كالسلطان يفرض نفسه في كل محفل وموقف.

- قليلون جدا يشعرون بجمال البيداء.. وطيبة اهلها.. لان المدينة جعلت الناس يتمرغون في وحول الماديات.. ويبقى البدوى وحده رمزا للبساطة.. واكثر الناس شغفا وتعلقا بارضه رغم قسوة الطبيعة..

- مهما طغت الماديات في النفوس. فلابد لمثل هذه الليالى الشاعرية.. ان تضرم الحب في الصدور.. والاستغراق في التفكير..

فرد الآخر بشىء من التبرم والضجر:

انك خيالي اكثر مما ينبغي..

وهتف السائق من فوره باهتمام وفضول:

لماذا...؟

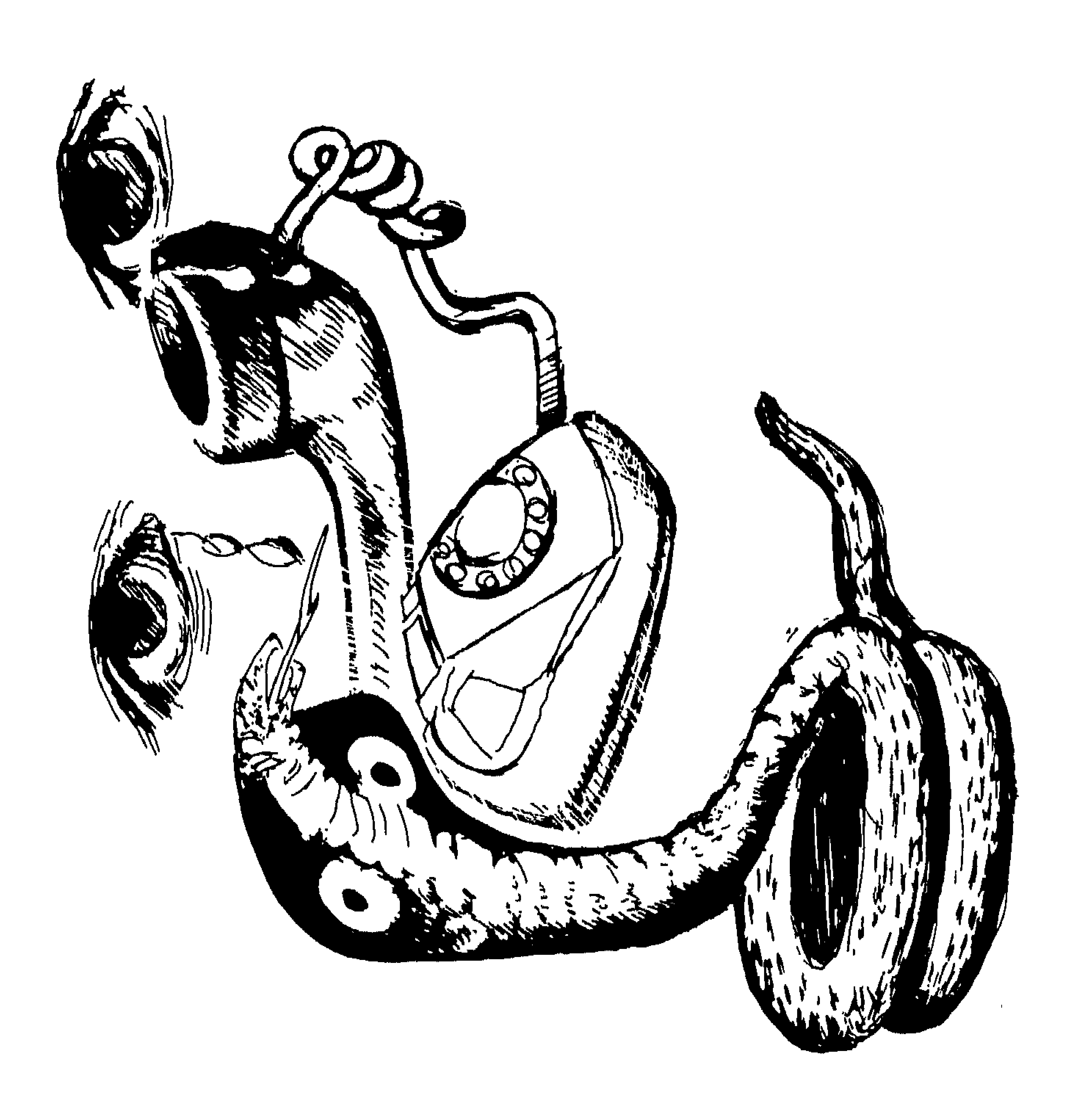
فقال بلهجة فياضة بالحزن والكآبة:

ان هذا الليل العامر بالظلام.. وهذا الكون الذى يشمله السكون الساجى بفيضه خليق باضرام العذاب القاتل في القلوب المعذبة..

فانحى الاخر باللائمة على نفسه وخامره احساس بالذنب فعمل على تحويل دفة الحديث الى وجهة لا تثير خواطره فغمغم بعد برهة:

لقد اصبحنا اصدقاء بحكم الرحلة فهل لى ان اعرف اسمك؟..

- سليمان طبعا.



- وانا عيسى.

فتأوه الاول في بؤس وقنوط.. ثم رنا الى محدثه بعين السائل وقال:

اسم جميل.. ذكرنى بقصة المسيح عيسى ابن مريم الذى كان يبرىء الابرص من برصه ويشفى المريض من يأسه.. ويحي الموتى بإذن الله.

فاعتصم الآخر بالصمت برهة وجيزة وادرك من نطق وتأوهات صاحبه بانه يرزح تحت وطأة من اليأس والالم.. فرمقه بنظرة خاطفة ثم تمتم:

يبدو لى ان كل شىء فيك ينطق بهواجس غامضة..

- هناك فئة من الناس مصابين بنوع من الهوس.. ويأبى النوم ان يرف على اجفانهم دون تفريغ شحنة من الاكاذيب التى هى مبعث اكثر الكوارث في هذه الحياة..

فالتزم عيسى بالصمت كأن كلمات محدثه اصابت الصميم وذكرته بذكرى مؤلمة.. فانتابه احساس بالحزن والانقباض.. فخيم الصمت عليهما وراح كل منهما يجتر حوادث الايام.. واعتدل سليمان في جلسته واتخذ هيئة من اعتزم امرا ثم قال بنبرة لا تخلو من الود والعرفان لمحسنه:

ارجو ان تقف عند تلك اللوحة.. فانا ذاهب الى المستشفى..

فادرك عيسى معانى الحقد والكراهية والتمرد المكبوت الذى كان يمازج حديث صاحبه.

***

عندما توقف عند محطة للتزود بالوقود لاحظ ظرفا بجانب المقعد الذى كان يجلس عليه سليمان يحتوى على بعض النقود والاوراق الخاصة.. فعاد من فوره الى المستشفى واخذ يبحث عن صاحبه.. واذا به يقف عند باب احد غرف العناية المركزة وقد اشتعلت عيناه وجوارحه برغبة طائشة.. لمعرفة ما يدور في

تلك الغرفة المغلقة . . ويبدأ ذلك جليا في رجائه وتوسلاته مع احدى الممرضات التي رفضت ادخاله . .

وما ان فرغ من نقاشه حتى اوما اليه عيسى بيده على قيد خطوات وسلمه الظرف ودفعته غريزة حب الاستطلاع الى السؤال فاجابه سليمان بنبرة غصيصة :

انها أمي وقد أصيبت بنوبة طارئة من المخاض والهبوط . . من جراء كذبه بشعة صاغها مجهول في براعة . . ادعى فيها انى توفيت فى حادث بعد ظهر اليوم . . وكانت النتيجة كما تراها بأم عينيك . .

فاصيب الآخر بالحيرة القاتلة من فظاعة الجريمة الشنعاء . . وبغتة جفل سليمان من شروده عندما احس بيد تطرق ظهره قائلا :

مكالمة هاتفية . .

ـ لعله والدى علم بالامر . .

فاستأذن صاحبه . . واخذ يسير بخطوات متثاقلة وفى ترنح واضح وكانه ثمل فادرك عيسى بأن قوى صاحبه على وشك ان تخور . . من جراء الصدمة فاوقفه وقال :

عليك ان تستريح . . ساشرح له الامر كما ينبغي . . .

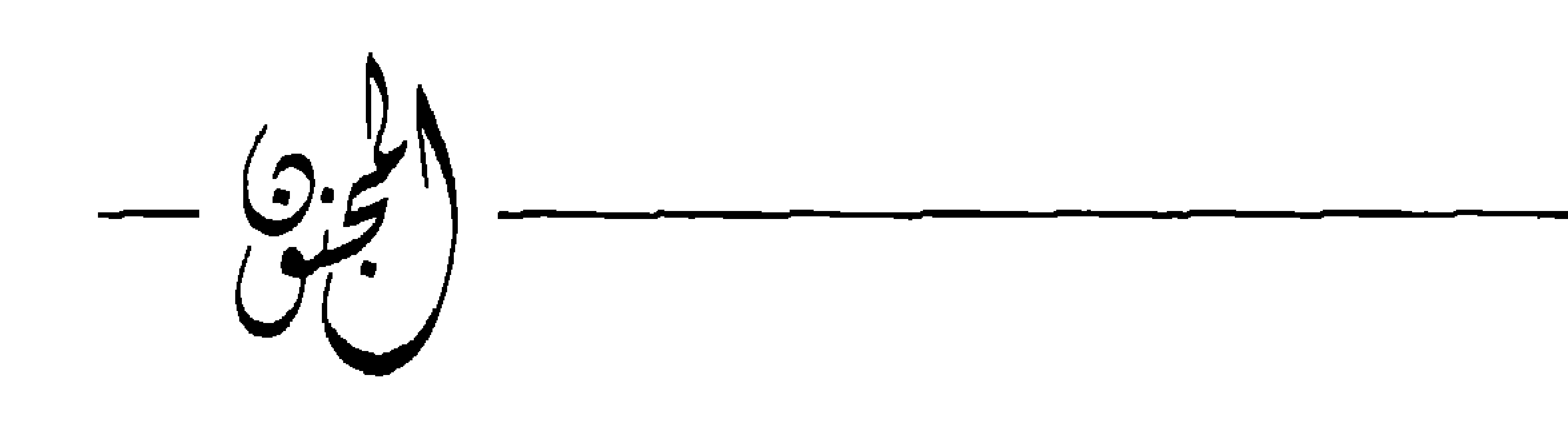
حين رفع السماعة . . لم يكد يكمل العبارة المالوفة : (هلو) . . حتى اطلق المتحدث قهقهة متواصلة . . وعندما استعاد انفاسه من جراء الضحك المتواصل غمغم بنبرة خالية من المبالاة .

انها كذبة ابريل ياسليمان . .

فانقطعت المكالمة فقطب عيسى حاجبيه من فرط الذهول . . وانتابه شعور

بالقهر والألم. . من جراء ذلك التصرف اللانساني. . ثم تحرك بعد وقفة من التأمل بخطوات وئيدة. . كالذى اضناه مرض مفاجىء. . ولاح له باب الغرفة التي ترقد فيها أم صاحبه مفتوحة. . ونحيبا مكبوتا ينبعث من اعماقها. . فوسع خطواته. . لكن عند عتبة الباب جمد جمود الموتى. . عندما وجد صاحبه ينشج في بكاء محرق عند اقدام الشمعة التى ذابت وانطفأ فتيلها للأبد. .

* * *


المجنون

المجنـــــون

سجى الليل وأخذ ينشر الويته السوداء الثقيلة على المدينة . . والتى تبدو بدورهـا البيضـاء وكأنها محراب مفعم بالركع السجود عند اقدام تلك الجبال السمـر التي تحيط بها كالاسـوار المنيعـة . . ويد مخضبة بالحناء تحتضن وجها عبوسا . . غرس مرفقها على فخذه كالوتد . . وغدت أشبه بالمثلث . .

ـ تناقض صارخ قائم بين اليد المضرجة بالحناء والوجه الذى يغلفه الحزن بغلاله . .

ـ أن هيئته تنم كذلك لمن لا يعرفه . .

ـ اتعني أنك تعرفه . .

ـ إنه فطن للغاية . . وأشبه بالحمل الوديع في سجاياه . . لكن علته البكم . . ويتهمـه بعض الجهلة بالجنـون من وحى تصرفاته الشاذة أحيانا والناتجة من مشاكسة بعض صبية المدينة له . .

ـ يبدو أنك عميق المعرفة به . .

ـ أنه من سكان هذه المدينة الصغيرة .

تلك العبارات تبادلها عابران للباب الكبير . . حين رأيا ذلك الذى أعتاد أن ينصب من نفسه تمثالا في تلك البقعة عند المساء . . وظل كعادته في مكمنه حتى كاد الليل أن يبحر وعندما كلّ ساعده تململ . . ثم هبّ واقفا . . وعند سفح الجبل الذى يحمل على هامته قلعة الميرانى في شموخ وكبرياء . . وقف وأخذ يتأمل ذلك العناق الأبدى القائم بين القلعة والجبل . . وظلت أبصاره شاخصة على جدران القلعة كالذى ينقب بين ثنايا الطوب عن رفات أجداده . . أو يقرأ

تاريخ نضالهم المقدس. . وعلى نحو مفاجىء كشفت السحب الداكنة عن وجه القمر وكأنها أرادت أن توضح له معالم القلعة. . ولكن ضياءه الباهت لم يعد قادرا على مصارعة أضواء المدينة المتلألئة. . فابتسم من سخرية الأقدار. . ثم واصل سيره على قارعة الطريق، وصخب المدينة قد هدأ تماما ودب الصمت الذى يبعث الرهبة، في القلوب. . ولكن الأنوار الممتدة كعقود الفضة المجلوة تخفف من وحشة الليل وسكونه. .

وحين أنسلخ من باب المثاعيب. . استدار نحو ميمنته وأخذ يسير نحو مواجهة الجبل الأجرد الذى كساه الليل بسواده الحالك وغدا كالشيطان المخيف في سواده وشموخه. . وفي أحد السكك بدأ له سور ابيض وما كاد ينتهى عند أحد زواياه حتى تراءى له شبح يتسلق كالجرذان على جدرانه. . فانزوى في لمح البرق عنه. . ودب الوجل بين ضلوعه النحيفة. . وأخذ يلهث من شدة الخوف. . فبرزت في رأسه فكرة فحنى قامته فى عجل وتناول صخره وهمّ نحو الرجل لكن لم يره. فأدرك بأنه تمكن من اقتحام الدار فسارع نحو عتبة البيت. . وأخذ يقرع جرسه قرعا متواصلا ولما لم يرد عليه أحد أخذ يتسلق الباب القائم في محاولة لأقتحام السور.

وبغتة فتح الباب وسقط الشاب على ظهره. . بينما وقف صاحب البيت بجثته الضخمة التى تبعث الهلع في القلوب ممسكا بيديه خصره الذى يتدلى الشحم من طرفيه وكأنه ثور هائج يريد الأنقضاض على خصمه. . وبيد حديدية أمسك بتلابيب دشداشة الرجل الذى يتمرغ على فتات الصخور من شدة الآلام وأوقفه. . وأخذ يزمجر في وجهه كالوحش وفي هيئته ما يثير الرعب القاتل في النفس. . وأخذ الشاب يغمغم بأنفاس لاهثة الا أن صوته أخذ يختنق



من شدة الخناق حول رقبته . . وقد امتقع وجهه . . فاستعان بأطرافه وأخذ يحرك أصابعه ويشير نحو المكان الذى أقتحمه المجهول . . لكن الرجل أصم اذنيه وأطبق على أجفانه . . وبدأ أشبه بالبركان الثائر من شدة الغضب . . وساقه في اللحظة نحو أحد مراكز الشرطة .

وهناك انفجر يقول بصوت ينم عن ثورة عارمة في نفسه . . بينما اتكأ الشاب على أحد الجدران من شدة الأرهاق والأعياء . . دون أن يوجس بحركة .

ـ أن هذا المجنون يجب الا يترك هكذا يسرح كالذئاب الهائجة . . ان الساعة الآن الثانية صباحا وقد وجدته يتسلق باب المنزل محاولا أقتحامه . .

فرفع الشرطى حاجبيه من أثر الدهشة فأشار بعد صمت بأصبعه نحو الشاب الواجم وقد امتلأت عيناه بالمقت والقنوط في آن واحد وقال :ـ

أتقصد صالح .

ـ في لهجة يشوبها الغضب : أهناك غيره؟

ـ أتعتقد أن هناك دافعا جعله يقتحم الدار؟

ـ لعله اراد أن يفرغ هوس جنونه بارتكاب جريمة ما .

تحولت نظرات الشرطى للحظة واستقرت على وجه صالح ثم قال :

يبدو أنك ضربته بعنف .

ـ ان الدماء التى تخضب وجهه ناتجة من جراء الجروح التى أصيب بها أثناء سقوطه على الأرض .

ـ وكيف عرفت انه كان يتسلق الجدار في مثل هذه الساعة .

ـ لأن هناك من كان يقرع الجرس بشكل متواصل . . جعلنى استيقظ من سباتى .

ـ أتعرفه . ؟

ـ لا علم لي به .

فأشاح الشرطى وجهه بعد تلك العبارة نحو صالح فسأله بلهجة تنطوى على العطف :

من الذى كان يقرع الجرس؟

فتململ هذا . . ثم استدار نحوه . . وأشار بيده نحو نفسه فأردف الشرطى قائلا :

لماذا . . ؟

فأخـذ يعـبر عن خلجـاته بالحركات . . والأشارات يصحبها همهمة تشبه أصـوات (المناجير) ففهم الشرطي ما يعنيه . . واستشف من حركاته الصدق والـوثوق . . وأخذ يشرح ما يعنيه صالح لكن وجه المدعى أضطرم بشدة . . واعتبر ما عناه صالح أهانة لعائلته المحافظة وضربة قاصمة لشرفه وكرامته فهتف قائلا بصوت حازم كلمات اكتسبت ثوب الخشونة والغلظة وهو يحملق في وجهه الشرطى تارة وتارة في وجه صالح بنظرات الأزدراء :ـ

أنه لمن الغباء المطلق أن يستسلم المرء لنزوات المجانين وايحاءاتهم . . وأن هذا الأبله يجب أن يعصم لسانه . . ويحطم أطرافه بالقيود . . و . .

فاعترضه الشرطى . . وأخذ يهدىء من روعه بينما أرتعد صالح من غضبه وأضطرام وجهه . . وقد بلل العرق جبهته :ـ

أنى على يقين بأنه لا يقصد أهانة أهلك أو الأساءة الى بيتك ولكن كان يهدف من حركـاتـه بأن الشخص الـذى رآه كان لصا يقصد سرقة بيتك . . ومضى يقول وقد امتزجت كلماته بالمرارة والأسف وأن معرفتنا بصالح ليست

وليدة الأمس فهو رجل يتصف بالهدوء . . لا يؤذى أحد على الأطلاق . . كما أنه ليس بمجنون كما تصفه والمشكلة تكمن في أنه يعاني من البكم وهناك تباين صارخ بين البكم والجنون . . وأردف قائلا هذه هى المرة الأولى التى نتلقى فيها بلاغا عنه . .

فقطب المدعى حاجبيه . . وسرت امارات الدهشة على وجهه . . وأخذ ينظر الى الشرطى بصبر نافذ ثم قال بلهجة تنم على الأحتجاج .

يبدو أنك ميال الى تصديق ايحاءات المجانين . .

فاعترضه الشرطى من جديد :

لا أقصد تكذيبك . . ولكن (الحذر قبل الشجاعة)

فأجاب الآخر بلهجة ذات مغزى :

ولكن (أهل مكة أدرى بشعابها) .

فلم يجد الشرطى بدا أمام اصرار المدعى الا أن يتخذ الأجراءات القانونية بحق صالح المتهم باقتحام البيت بقصد الأعتداء . . مع سبق الأصرار . . وما أن انتهى حتى استأذن المدعى . . بينما أحيل صالح بعد ضماد جروحه الى السجن . . فأخذ قلبه يخفق ويرفرف كالطير الذى ذبح في التو واللحظة من فرط الوجل والفزع الذى خامره بين جدران السجن . . وأبى النعاس أن يرف على عينيه وظل واقفا ينظر من خلال قضبان الزنزانه التى يقبع فيها خيوط الفجر وهى تبعث بأنفاسها تيقظ المدينة من هجوعها بعين الحسرة والألم واليأس كأنه بُتر من الحياة وعرسها وسحابة سوداء يكمن في أعماقها صنوف الكآبة والحزن قد جثمت فوق سمائه . .

وعلى نحو مفاجىء أخذ رنين الهاتف يمزق هدأة الصبح . . وانسابت كلمات

المتحـدث عبر أسـلاكـه كالسيل. . ويـراكين الحسرة قد كبحت جماح العزة والكـبرياء في نفسـه. . بينما أخذ الشرطي يصغي الى حديث محدثه اصغاءة المستغرق الذى ظللته ظلال الذهول وأخذ يرهف السمع الى تفاصيل القضية ودقائقها. . الى أن ختم محدثه حديثه بقوله:

أنه لمن البلاهة والخطأ الشنيع عندما تجاهلت العبارة القائلة (خذ الحكمة من أفواه المجانين).

اليــــد الخفيــــة

تأوهت من أعماقها وهى ترتجل بثوبها المهلهل الذى يغطى جسدها المتهالك البـدين ومن فورها أخذت ترسل نظراتها الى جوف الدار من خلال فجوات الباب الخشبي المتداعي. . ضمن اطار البصر. . وتساءلت ـ وهى تمد يدها في وهن وفتور وبين أصابعها الغليظة التي ترك عليها الزمن وشومه ورقة مالية لفت كهيئـة لفـافـه السجاير. . أخرجتها من محفظتها ـ اين يكون ياترى في هذه السكينة التي بدأ الظلام يغلفها بجلبابه؟ ـ أفاقت من شرودها بصوت أجش يقول:ـ

الوالده (النول) ثلاث ريالات. .

فدمدمت كريح عاتية في وجهه. . وكأن لسانها مدموغا بالجرأة والصراخ في آن واحد. . وهتفت بصوت ينم عن ثورة:

لست كالعنزة التي تستسلم للجزار ليفتك برأسها. .

فقاطعها بنبرة خفيضة وهو يتأمل وجهها الصارم:

ولكن هذا ما يدفعه كل راكب عن تلك المسافة. .

ـ لأن السنتهم ملجومة كالخيل. .

فاحمر وجه السائق من شدة الغيظ والحنق فغمغم:

يالك من امرأة شريرة. .

ـ لست أشر من شياطين الجشع التى تزأر في أمعائك. .

ـ لن أغفر لك هذا الابتزاز. .

ـ أنى في انتظارك أيها الأحمق. .

- (الحية بوتفح ما تلدغ).

فأرسلت ضحكة ساخرة ثم أردفت قائلة بصوت حاد كالسكين:-

الأقزام عادة يتحدثون من جحورهم..

فامتقع وجهه غضبا.. وهو يزدرد الأهانة.. وعلى حين غرة جلجل من بين الرتل الجالس صوتا يقول:

لن أدفع الا ريالا..

فشاح وجهه نحو الصوت واذا بالعيون تتوهج بنار الحماسة والتصميم.. فراعه منظرهم وخيل اليه بأنه أمام جمع من الأفاعى تتحفز بالانقضاض عليه.. فأطلق عنان عربته.

* * *

تهالكت البدينة على سجادة مقطعة الأوصال في غرفتها ودست في (سحارتها) الخشبية محفظتها.. وأمعنت النظر في ارجاء الصندوق قبل أن تغلقه كأنها ارادت ان تتأكد من محتوياتها.

مالبث أن عادت وفتحتها وأخرجت المحفظة وأخذت تعد نقودها في غاية الحرص والدقة.. وبغتة أضطرم وجهها وشعرت بشىء يعصر فؤادها عندما تذكرت الريال الذى دفعته للسائق.. وأخذت تصب اللعنات على الساعة التي قررت فيها زيارة أخيها ثم عادت وأغلقته..

أخذت تنهم المسافة التي تفصل بيتها عن بيت أختها.. لم تقو أن تخفى غيرتها كالعادة وهى تضع قدميها الحافيتين على السجاد الفاخر الذى يفرش أرضية الدار. فأخذت غريزة الحسد المتأصلة في نفسها تتوهج على معالم وجهها.. ومن خلال عباراتها القاطعة التي لا تخلو من رنين الغيرة والسخرية.

وكانت أختها الصغرى تستعين بمعين لا ينضب من الصبر وهى تلقى

الجمل المدسوسة بالعلقم وأحيانا تصم أذنيها . . لأنها تدرك الدوافع النفسية من وراء ذلك السيل الجارف الذى يخالج كل حرف تنطقه . . فالنقاش معها أمر في غاية العسر فاذا حدث شيء كهذا . . فأنها بلا شك ستقودها الى ثرثرة تافهة الى حد العقم تثقل به قلب المرء . . وتقوده إلى الكشف بفجاجة عن رأيه فيها عندها تثور كالبحر العجاج . . وتجعلها زورقا يتأرجح على سطحه . . وتقذفها بوابل من الشتائم القذرة . .

ولتلك الأسباب تعتصم أختها بالصبر . . فعند وصولها القت بجسدها على الأرض وحين دعتها أختها بالحاح بالجلوس على أحد المقاعد . . أفتر ثغرها عن ابتسامة لا تخلو من السخرية ثم قالت بصوت ينم عن السخط :

لم تصنع المقاعد الوثيرة لأمثالنا . . فالفقراء يعرفون ركنهم الأغلس في هذه الحياة . .

ولم تحر أختها جوابا . . فهى تدرك بخبرتها وحواسها حثالة الحديث الذى سينحدر عليها اذا أوجست شفتاها بنطق . .

وفي تلك اللحظة وضعت الخادمة أمامها مائدة العشاء فتململت ثم غمغمت في تهكم لاذع وهى تمد يدها بشراهة واضحة الى المائدة :-

ان الموائد الدسمة تسبب البشم في معدة المعدوم . . لأننا لا نعرف سوى (رخاله) وقدح من الشاى . .

فابتسمت اختها بمرارة وهى تحاول أن تغير دفة الحديث وقالت :

لماذا لا تحثين سليمان بترميم البيت . . !؟

- من كان أسيرا في براثن الشح هيهات أن يفكر في أمر كهذا . . شردت نظرات أختها طويلا وهى تحدث نفسها :

(لا أظن على وجه البسيطة من هو مكلل بالشح أكثر منك).

افاقت من غيبوبتها بسؤال منها.. تقول:

هل كان سليمان هنا؟

- نعم.. ولكنه رحل قبل وصولك بدقائق..

عندما عادت كانت العتمة لازالت تغشى البيت.. وبغتة تسمرت في مكمنها وكادت تفقد عقلها من فرط الرعب الذى انتابها.. عندما استقرت نظراتها على باب الغرفة المحطم.. وبنفس خارت قواها سعت الى حيث موقع [السحارة].. فصعقت عندما لم تجد المحفظة.. وبأنفاس لاهثة أخذت تحدث نفسها وكأنها أصيبت بنوبة طارئة من الجنون:

لعلى وضعتها هنا... لا هناك..

وبيد مرتعشة أخذت تنبش وتقلب كل ما يقع تحت عينيها.. وعندما يأست تأوهت في بؤس وقنوط.. مالبث أن هرولت نحو المطبخ.. وفجأة سقطت على جثة ممتدة تسيل الدماء من رأسها.. لم تتبين في بادىء الأمر هويته فأخذت تتحسس قدميه براحتها.. فسرى الجزع القاتل الى بدنها.. لكنها بذلت جهودا مضنية لأسترداد رباطة جأشها وهدوء أعصابها.. ثم جثت بجانبه ووضعت رأسها على صدره..

وعلى نحو مفاجىء تركته.. وأخذت تطلق صيحات الأغاثة.. وتصب أفظع اللعنات وأغلظها على راشد.. الذى قالت انه وراء الجريمة وسرقة المحفظة.

* * *

عندما استجوبت الشرطة راشد رفض الأتهام بأصرار وعناد.

النقيب عادل بنبرة صارمة:-

اين كنت ساعة ارتكاب الجريمة؟

فأرخى بصره ثم أجاب بعد صمت:

في منزل خطيبتي.

- وما أدرانى؟

- بأمكانك الاتصال بها . .

فرمقه بأرتياب ثم أردف قائلا بلهجة لا تخلو من مغزى:

ان القلوب التى تتوهج بنار الحب لن تتوانى في التضحية. . وأخفاء الحقيقة . .

- أتعنى . .

فقاطعه :

أعنى مالذى يمنعك من الأتفاق معها . . بسرد قصة مختلقة اذا سئلت . .

- ولكن ليست هى وحدها في الدار. .

فهب المحقق واقفا ثم قال:

ولكنك سبق وأن هددتها بالانتقام . .

- لأنها هضمت حقى قسرا . . وحرضت ركاب السيارة على وكدت أقع فريسة لولا تنازلى عن مطلبى . .

- ولهذا سرقت المحفظة . . وصادف في تلك اللحظة وصول زوجها فاعترضك فقتلته.

وبنبرة واثقة قال:

انـا لم أقتل ولم اسرق . . وانك لا شك تلتمس لى العذر . . فالتهديدات الصادرة في ساعة الغضب يمكن تبريرها بسهولة . . فليس كل ما يقوله المرء

يفعله . .

صمت النقيب عادل برهة وجثت سحابة من السكينة على سماء الغرفة وكأنه تعمـد السكـوت . . وفي تلك اللحـظة مس صوت أذنى راشـد من الغـرفة المجـاورة . . فتصـاعـدت الدماء على وجهه وعندما القى عليه النقيب عادل نظرة . . اضطرم وجهه وأضطربت جوارحه . .

النقيب عادل :

أعتقد أنك تعرفه أليس كذلك؟

فشعر بالخذلان . . فقد شل الخوف لسانه فلم يقو على التلفظ فأومأ برأسه بالايجاب .

ـ من يكون؟

ـ أنه صديقى . . خليفة . .

ـ سمعت ما قاله اليس كذلك . .

فأوما برأسه ثانية .

ـ اذا ما يقوله المرء يفعله أحيانا . .

فزفر من أعماقه ثم قال بصوت مرتعد مشوب بالقلق . . وهو يدلى باعترافاته :

لقد وضعت خطة سرقة المحفظة رغم الحاح خليفة بالعدول عنها . . وكانت الخطة تقضى بمراقبة . . الدار على أن تتم السرقة . . اثناء خروجهما . كنت أعرف الوقت الذى يخرجان فيه عند المساء . .

فاعترضه المحقق :

وما أدراك بوقت خروجهما؟

ـ طبعا بحكم الجيرة . .

ـ أكمل

ـ كنت في تلك الساعة في بيت خطيبتى بالفعل . . لأبعد أى شبهة عنى على أن يقوم خليفة بتنفيذها وقد غفلت سذاجته في خضم ذلك الغضب والغيظ اللذين زرعتهما زوجة المجنى عليه في نفسى . . رغم علمى بها . .

ـ لماذا تصفه بالسذاجة؟

ـ وبماذا تفسر تصرفه . . أيعقل أن يقتحم المرء دارا بقصد السرقة ثم يخرج من بابه المشرع . . بأنفاس لاهثة امام جمهرة من العيون التى لا تغمض لها جفن قبل أن تلقى بسهامها على الرائح . . والغادى . .

وعندما سئل خليفه كانت اجاباته مطابقة تماما . . لأقوال صديقه لكنه أعترف بأنه ضرب المجنى عليه بآلة خشبية . . عندما فاجأته . . وهو يهمّ بالخروج . .

* * *

عندما جنح النقيب عادل اليها ذات مساء وجدها وحيدة تفترش الأرض لكن رنين الأواني المعدنية في المطبخ عندما طرقت اذناه جعلته يسألها من هناك؟

ـ أنها جارتنا . .

فحدجها ببصره فبدا وجهها المكلل بالفجيعة ونفسها التى تنضح بؤسا وشقاء . . فرثا على حالها . . وأبدى لها عن أسفه . . ثم أخذ يحاورها بحديث مفعم بالود . . فوقعت في شرك جاذبيته . .

بصوت هادىء ينطوى على نبرات الرثاء :

البيت أشبه بالخرابة وراتب المرحوم كان يزيد عن ثلاثمائة ريال . . بذهن شارد :

ذلك هو السر الذى طالما حاولت معرفته . .

ـ اليس هناك أقارب يصرف عليهم جزء من راتبه.

في تبرم وضجر:

للأسف لا

ـ أتعتقدين بأن راشد هو القاتل

فانتفضت من فرط الـدهشة.. وكأن رعدة سرت في أوصالها فحانت منه نظرة الى وجهها فلاحظ الدموع الحارة قد ملأت مآقيها ثم قالت في أنين موجع ينطوى على التأكيد:ـ

ان راشد لم يكتف بسرقة عصارة جهدى وشقائى.. بل نحر الأنس الذى كان يملأ هذا البيت الحبيب الى نفسى.. بالحب والدفء..

بلهجة يشوبها الحزن والأسف:ـ

ما كنت أقصد أثارة خواطرك.. وأني لارجو الله أن يشملك بعنايته..

بينما هو يهم بالخروج شاهد رجلا يرتجل من سيارة أمام دارها فاستوقفه والقى عليه بضع اسئلة مقتضبة ثم تركه على سجيته.. وفي اللحظة أخذت أسارير وجهه تتفتق من فرط الدهشة والحيرة فتأفف من شدة البلبلة التى أحدثها ذلك الـرجـل في ذهنـه.. وايقن في قرارة نفسـه بأن هنـاك سحـابة مبهمة تسدل القضية.. فأخرج مفكرته وخط ثلاث سطور في متنها.. ثم ارسل نظرة الى السـاعـة المعلقـة على الجـدار.. ومن فوره أنـطلق بلهفـة نحو مكتب ذلك الرجل.. فأبرز له هويته.. ثم أستطرد سائلا:

ـ كم تبلغ قيمة قسيمة التأمين في هذه الأحوال؟

ـ ستين الفا.

ـ انه بلا شك مبلغ ضخم.

ـ بالتأكيد.

ـ وكم يبلغ القسط الشهرى لهذه القسيمة؟

ـ نحو خمسة وتسعين ريالا . .

قفزت في اللحظة أجابة ارملة المرحوم حين قالت:ـ

(ذلك هو السر الذى طالما حاولت معرفته).

ـ اتعتقد بأن زوجة المرحوم كانت على علم بقسيمة التأمين.

ـ يبدو أن المرحوم لم يبلغها على الأطلاق.

ـ كيف استقبلت خبر المبلغ.

ـ بكل فتور بل علقت قائلة برنة شاعرية حزينة كلمات حافلة بالمعانى . . جعلتنى أغشى برهة من طهارة نفسها حين قالت:ـ

الربيع الغامر قد دلف. . وماذا عساى أن أزرع في شتاء تزأر فيه رياح غاضبة تكاد تذرى بضلوعى الواهنة. . المكللة بالآلام المريرة.

ـ أنها تعانى من الوحدة والفراغ القاتل.

ـ نعم أنها كذلك.

ـ ياترى أين كان المرحوم يخفى قسيمة التأمين. ؟

ـ ذلك الأمر الذى أجهله. . ولكنه كان يقضى جزء من أماسيه مع رجل من أهل الحجا. . تبدو عليه سمات النبل والوقار. . وهو نظير قديم له في الدائرة التى يعمل بها. . وامثال هؤلاء التقاة لابد أن يكونوا موضع ثقة المرحوم.

ـ هل لي بأسمه وعنوانه.

ـ بكل سرور.

فأخذ ذلك الموظف يخط ما طلبه منه وعندما ناوله الورقة قال عادل:

برجاء أن تضع الورقة في مظروف . . خوفا من اختلاطها ببقية الأوراق التى تملأ حقيبتى ففعل الرجل .

وفي الـدائرة التقى بذلك الشيخ الوقور . . وانهال عليه بسيل من الأسئلة وعندما انتهى شعر بصداع يعصر رأسه ويمطارق تدق انسجت دماغه وتتلفها فأخـذ يهز رأسـه تارة ويعصر جبهتـه طورا من هول المفـاجـأة التى خدشت توقعاته . . وناصرت أرهاط الشكوك التى طالما ظلت تساوره فتنهد من أعماقه تنهيدة دلت على مبلغ المرارة والأسف الذى أنتابه في التو واللحظة . . ثم حدث نفسه :

(هكذا اذا أخذت الحقيقة البشعة تبسط نفسها على رمال الصحراء سافرة وتحت وهج الظهيرة) .

* * *

وعنـدمـا عاد الى مكتبه وجد ملاحظة منشورة فوق منضدته فشخص الى مكتب رئيس التحقيقات الجنائية فبادره بنبرة تنطوى على الرثاء والثناء :ـ

يبدو أن القضية أرهقتك . .

ـ أنها متشعبة ولكنها أخذت تسفر عن نفسها .

ـ لعلك توصلت الى اليد التى كتمت انفاس المجنى عليه .

ـ أنها تقترب من تلقاء نفسها .

ـ فهذا يعنى تبرير ساحة الشابين المتهمين بارتكاب الجريمة .

ـ هذا صحيح . . ولكن خليفه ساعد المجرم الحقيقى عفويا . . وأسدل سحابة سوداء حول هويته .

ـ كيف .

ـ الضربة أفقدت وعى المجنى عليه . . وفي اللحظة ظهرت يد خفية وكتمت

أنفاسه . .

- وفي هذه الحاله . . ستحوم الشكوك طبيعيا حول خليفة .

- أنها جريمة محكمة لولا تلك الفجوة التى . . ظهرت . .

- ماذا تعنى بالفجوة؟

- بصمات اليد التى كتمت انفاس المجنى عليه كانت واضحة على خده الأيمن .

- أنها ليست الا خيطا من خيوط العنكبوت . .

فأفتر ثغر النقيب بابتسامة ثم غمغم بنبرة الواثق :

ان خيوط العنكبوت بأمكانها ايقاع البراغيث في نسيجها .

فأرسل ضحكة هادئة ثم أردف سائلا :

وماذا عن ارملة المرحوم؟

تأوه عادل ثم تمتم بذهن شارد :

هناك ظاهرة أخرى تستحق الوقوف . . والتمعن .

- ما هى؟

- ان المرحوم كان مؤمنا على حياته بستين الفا . .

- وهل أرملته على علم بذلك؟

- انها انكرت هذه الحقيقة ضمنيا . . ولكنها على علم بتفاصيلها قبل وفاته لأن صديقه الذى كان يعمل معه هو الذى افادنى بهذه الحقيقة . .

فرفع العقيد سعد رأسه كالملسوع لتوه وأخذ يحملق في وجه عادل بعينين حائرتين بينما نسج الصمت سحابة على سماء الغرفة . . مالبث أن هب واقفا وأخذ يذرع الغرفة غدوا ورواحا ثم هتف قائلا :

لقد أطلعت على تقرير الطبيب النفساني . . فعقم الزوج . . وحالة القنوط الناتجة من جراء الفقر المحدق بها . . وعيشة أختها البذخة . . وميلها الى المهاترات والتدخل في شؤون الآخرين . . سلطت عقارب الغيرة والحسد . . اذا لم نقل قد أثارت غريزة الأنتقام في نفسها وتأتى قسيمة التأمين بأرقامها الذارية لتلقى بظلالها فوق تلك الأسباب . . وتيقظ مارد الجشع القابع في أعماقها . .

ـ مع احترامى لتلك النتائج الا انها لا تتعدى اطار الشك . . ومذهب الشك يبقى مشلولا اذا لم يسعف بالحقائق الدامغة .

ـ ولكنها تبقى قائمة مالم تحدث معجزة . .

ـ لا ريب في ذلك ولكن نتيجة البصمات ربما ستقطع الشك باليقين .

ـ ستبقى خيطا . . وهذا الخيط غير قابل للشد معها باعتبارها زوجته . . ومن الطبيعى ان تظهر بصماتها في أى جزء من جسده وخاصة في تلك الحالة . .

ـ أدرك ذلك . . وعلى أن استأذنك الآن . .

عرج نحو مختبر البصمات وهو في طريقه الى مكتبة . . وهمس ببضع كلمات في أذن المشرف . . قبل أن يسلمه حقيبته الصغيرة . .

ماكـاد أن يستقر على مقعده حتى جفل كالرضيع النائم الذي راعه دوى عندما طفح في ذهنه سؤال :

لماذا أنكرت أرملة المرحوم أمر القسيمة وهى على علم بها . . ؟

وعند المساء طرح عليها ذلك السؤال . . فاضطربت ثم غمغمت بعد صمت في خبث الدواه :

ماذا تعنى بقسيمة التأمين .

فابتسم عادل وحدث نفسه :



(انها تستغبيني).

ثم اجابها بنبرة ماكرة يشوبها شيء من السخرية:

تعني ستين الفا.

ـ أنك تخدش كبريائي بسخريتك..

ـ ذاك جواب الشرط.

ـ ماذا تعني.

ـ انك على علم بتفاصيل القسيمة قبل وفاة المرحوم.. وقد أكد لي هذه الحقيقة صديق المرحوم داود.

شهقت مذعورة عندما طرق ذلك الأسم اذنيها ثم هتفت بلهجة اليائس:

لقد خان الأمانة.

ـ لماذا؟

ـ لأنه اقسم بأن لا يبوح بأمرها.

ـ ولكن يجب أن نلتمس العذر.. فالمرحوم قد توفي وأصبح أمر معرفتها ضرورة ملحة تفيد التحري عن القاتل.

ـ كان عليك أن تقول له.. بان المجرم قد وقع في يد العدالة..

ـ لكن راشد وخليفة ليس هما القاتلان..

زاغ بصرها في اللحظة وبصوت الحائر المجزوع قالت:ـ

ماذا؟

ـ هناك يد خفية أخرى كتمت أنفاسه.

تضاعف جزعها فتراجعت متخاذلة.. وقد شلها الخوف.. فلم تنبس ببنت شفه.. فاستطرد قائلا:

أنه ليس رأيي . . ولكن رأى الطبيب الشرعى .

فاكتفت بهزة خفيفة من رأسها . . فمزق الوجوم المخيم عندما عاد يسألها :

لماذا هذا الأصرار على ابقاء القسيمة في طي الكتمان .

ـ مسألة خاصة .

ـ لعلها تفيد . . ثم أننا كرجال أمن ليس من شيمتنا أن نغتاب الناس أو نشهر بهم . .

فأرخت بصرها وغمغمت في رضوخ :ـ

أن للمرحوم أبنة من زوجته الأولى . . جميلة كالنجوم الزواهر . . اذلتها الحياة بالشلل . . وكان شغوفا بها الى حد الهيام . . ولعل مصدر ذلك الحب ناتجا لكونها أبنته الوحيدة من ناحية ولوخز الضمير الذى كان يعانيه لكونه كان السبب في أصابتها بتلك العاهة البشعة من الناحية الثانية . . عندما تعرض لحادث سير وهى كانت بصحبته . . وأردفت قائلة وقد أمتزجت كلماتها بالحزن والأسف :

وآثار ذلك الحادث أمتدت اليه شخصيا فقد أصيب من جراءها بالعقم . .

وظل النقيب عادل يتابع حديثها في ضرب من الدهش الثمل .

ومن يومها أخذ الفقر والحرمان يبسط ذراعيه السمجة على حياتنا فقد كان يصرف جزء من راتبه لأعالتها والجزء الآخر لشركة التأمين كى لا يتركها لقمة سائغة لعوائد الزمن بعد وفاته . . وقد استحلفنى بأن لا أبوح بأمر القسيمة . . حتى لا يتسرب الخبر لأبنته لأنها كانت على دراية بحالته المادية الصعبة . .

وحالة البؤس تلك جعلتنى أكابد الكثير من الويلات في حياتى معه وكنت الفظ بسمومى وآلامى بالصراخ في وجهه الا أنه كان رجلا طاهرا . . نقى السريرة والوجدان . . يستقبل قرعات طبولى ومزاميرى بصبر الخنساء . .

ـ انها بالفعل قصة محزنة. . وأين تعيش ابنته هذه؟

ـ مع أمها.

ـ هل أرسلت لها قسيمة التأمين .

ـ انها لا زالت في حوزتي. . وقد اكملت اجراءات صرفها. . وسوف أرسل عن قريب في طلبها. . لنذهب معا الى الشركة.

* * *

سيارة فخمة تقف أمام البنك يرتجل منها رجل فى طور الشباب وفى يده حقيبة عنابيه. . هيئته توحى بالثقة. . وبجانبه امرأة تستكين تحت عباءة سوداء. . معالم وجهها مستورة تحت خمار اسود يصعب على الرائى قراءته. . أبت النزول في أول الأمر. فالقى الشاب على اذنها همسات مكتومة وبنفس مضطربة أرتجلت وأخذت تسير وراءه كالخروف الذليل. . البنك كان عامرا بالزبائن فأشار اليها الشاب بالجلوس. . فتهالكت على مقعد عند احد الزوايا تقدم هو نحو موظف الصرف بخطى ثابته. . وأخذ يتأنق فى حديثه مع أحد الموظفين الذين لا تفارق الابتسامة شفاههم.

فتح الحقيبة التى كان يحملها وبيد جامدة أخرج من بطنها شيك،

الموظف :

لطفا من هى صاحبة الشيك؟

أشار بيده نحوها ثم تبعه الآخر بأشارة أخرى امعانا فى التأكيد. .

ـ أرجو أن تستدعيها الى هنا للتأكد من هويتها. .

ـ أنها ربة بيت.

ـ جواز سفر.

ابتسم ابتسامة عرجاء. . ما لبث أن دوت تحت وطأة نبراته التى تنم بالسلطان.

ـ انك تشاركنى الرأى اذا قلت أن غالبية النساء بدون جوازات سفر.

ـ ستون الف ريال من العسير صرفها دون اثبات.

ـ لديها ما يثبت هويتها.

ـ ارنى.

بخطى واسعة اخذ ينهم المسافة بينهما.. همس في أذنها بضع كلمات..، سلمت نفسها له وكأنها معصوبة العينين فتبعته.. ومن تحت العباءة أخرجت ورقة غريقة من العرق..

ـ سأعرض الأمر على مدير البنك..

ـ أنها صادرة من شيخ الحارة.. ومصدقة من قبل الوالى.

ـ لكنها بدون صورة.

مرت لحظة قاسية خالها دهرا وهو ينتظر قرار المدير. وبعينين يكمن فيهما اللهفة والرجاء.. أخذ ينظر نحو الغرفة الزجاجية المقابلة التى يقبع فيه المدير..

نقاش ساخن بين مدير البنك ومدير شركة التأمين عبر الهاتف مدير الشركة يؤكد أنها ابنة المرحوم والوريثة الشرعية الوحيدة وأن الورقة الصادرة من شيخ الحارة لاغبار عليها.. وهى نفس الورقة التى تم الأعتماد عليها في صرف الشيك نظرا لظروف المرأة..

عاد الموظف بابتسامته المعهودة وأبدى أسفه على التأخير. ولم تمض فترة وجيزة حتى أخذ الرجل يلقى بربط النقود في حقيبته فمضت المرأة امامه منحنية الرأس.. وكأنها تصغى لخطواتها..

* * *

اجتمعت أطراف القضية برمتها بين يدى النقيب عادل فعكف مع أحد

اقرانه يدرسان جوانبها لكن ظلال الطلاسم كانت تغشى نواحيها وعلى حين غرة أستبـد بعـادل ذهول رهيب. . وأخذ يتأمل على نحو محموم تقرير مختبر البصمات فغامت عيناه من هول المفاجأة. . واستغرق في جمهرة من التفاعلات الباطنية. . وبغتة برزت ثمة فكرة في رأسه فطلب من قرينه استدعاء السائق المحجوز في ذمة التحقيق ونظيره. .

أخذ يصب عليهما سيلا من الأسئلة. . وعند نقطة معينة وجد ضالته. . فأطلق زفرة حرى من أعماقه ثم قال وهو يحدث نفسه بعد أن خلا له الجو:

انها شخصية يلتبس على الـرأى فهمهـا. . ولكنـه قذفها في أشداق مورد الهلاك بكلتا يديه.

تململ في جلسته ونظراته مصوبة في شرود على الجدران الخرساء في تلك الهدأة المثيرة للخواطر التى تشيع فيها نفس الأنسانية بالطمأنينة. . وتتفتق الدنيا امام عين المرء لتبرز مفاتنها الصارخة التى تهتز لها القلوب المحبة للخير والسلام.

صرخات هستيرية مكتومة تنبعث بشكل تثير الفضول. . فهتف على مقعده:

ياالهي انها ارملة المرحوم. . نعم انها هى. . تدفع امامها دراجة تستكين عليها امرأة كسيحة ناحلة القوام.

وكأنها في عقدها الثانى. . وأخرى مكللة وجهها بالشعاب من قسوة الحياة وآلام الـزمن. . فخف في اللحـظة لتحيتهم. . لكن حلقـه غص من شدة الانفعـال. . عندما سردت الكسيحة على مسامعه نبأ سرقة القسيمة بصوت دفاق بالحسرة والشجون. حانت في اللحظة منه نظرة على وجه الأرملة وهى تنشج في البكاء قبل أن يستأذن.

لم يقو أن يقمع الرعشة التى سرت في كيانه عندما قال مدير شركة التأمين بأن المبلغ تم صرفه لأبنة المرحوم . . وبنفس حائرة غمغم :

انها ليست هى . .

ـ أؤكد لك أنها هى .

استـدار نحو خزانة جانبيه . . أخرج من ثنايا أحد الملفات عدة وثائق ثم هتف قائلا :ـ

أولا هذه هى شهادة الوفاة الصادرة من المستشفى .

ثانيا هذه الوثيقة الصادرة من شيخ الحارة ومصدقة من مكتب الوالى . . بأنها الوريثة الشرعية للمرحوم . . وهو نفس الأسم الوارد في قسيمة التأمين . . وعليه أصبح أمر صرف القسيمة قانونيا بالنسبة للشركة .

ـ أرأيتها بام عينك؟

ـ نعم أنها امرأة نحيلة لم تتجاوز العشرين .

ـ ولكن ابنة المرحوم كسيحة .

ـ ولكني رأيتها وهى تقف على قدميها .

رفع عادل حاجبيه في شبه قوس مختلج من فرط الدهشة وبعد صمت قال :

أين محمود؟

ـ أتقصد الموظف في قسم الحياة .

ـ نعم .

ـ انه في اجازة سنوية .

ـ اذا على أن اقابل شيخ الحارة .

ماكاد ان يتحرك من فوق مقعده حتى تحرك كيانه شوقا ولهفة لرؤية الشيخ . .

وحين قابله أكد له تلك الحقيقة بنبرة الواثق وأردف قائلا:

بأنني أنا الذى قمت شخصيا بتصديق الوثيقة من مكتب الوالي نيابة عنها. .

ـ من تقصد؟

ـ أرملة المرحوم.

ـ ومتى تم ذلك.

ـ منذ اسبوع تقريبا

ـ هل ابنة المرحوم كسيحة بالفعل؟

ـ أعتقد ذلك. .

عندما كان في الطريق عائدا الى مكتبه. . أخذ يقاوم بأصرار ثقل الشكوك الذى انتابه وتساءل في قرارة نفسه هل ذلك الأختلاس امتداد للجريمة نفسها. . أم ذو طابع خاص. . وعلى نحو مفاجىء قرر أن يشخص نحو أرملة المرحوم.

باب الدار مشروع وامرأتان مجللتان بالسواد تفترشان سجادة مقطعة الأوصال انتبذتا ركنا من فناء البيت المتواضع. . وأخرى نحيلة القوام تبدو وكأنها في عقدها الثانى تذرع المكان جيئة وذهابا في همة ونشاط. . وكأنها مشغولة. .

استقرت نظرات النقيب عادل على الأخيرة فارتعدت فرائصه وحدث نفسه قائلا قبل أن يشرع بطرق الباب:

انها امرأة قديرة على ابتكار الحيل.

وحين مس صوت عادل أذن الأرملة جفلت. . فرفعت رأسها المطرق وبدت جبهتها مرصعة بالعرق. . ووجهها مخضب بالاوجاع فرمقها عادل بنظرة أزدراء

بينما اختفت تلك النحيلة بغتة عن الأنظار. . وتساءل بنبرة قوية:

اين ابنة المرحوم أذا؟

بوجه مضطرب وبنبرة مرتبكة:

انها في تلك الغرفة

- هل لى أن أراها.

- نعم لحظة من فضلك.

وبعد هنيهة تصاعد صوتها يدعوه بالدخول. . أتسعت حدقتاه من أثر الدهشة حين رآها تكفكف دموعها. . وعلى وجهها الآثار الناطقة بالحزن والآمال الخائبة.

فابتدرها قائلا:

ومن تكون تلك النحيلة التى كانت تجوب البيت قبل قليل.

- أنها جارتنا.

- وأين اختفت.

- أنها لم تختف. . ربما هى في المطبخ الآن. . تساعد عمتى في اعداد الطعام، وهذه هى حالتها منذ وفاة والدى.

أرسل الأرملة في طلبها ولكنها رفضت المجيء بحجة أنها تشعر بالحياء في مقابلة الغرباء.

فاضطر الى اقتفاء أثرها. . واذا بها تنزوى في احد اركان المطبخ وجسدها يرتعش جزعا. . رمقها بنظرة فاحصة أراد بها أن ينفذ الى دخيلة نفسها. . فخارت قواها وافترشت الأرض.

وبصوت يشبه دوى الرعد قال:

من تكونين؟

غص حلقها. . وجف لعابها. . ولم تجب. . ومرت لحظة اليمة حرجة فأعاد اليها السؤال:

الأرملة: لماذا تخاطبها بهذه الغلظة؟

ـ كلاكما يعرف السبب.

سرت اشارات الأستغراب على وجه الأرملة وبلهجة مضطربة تمتمت:

ماذا تعنى؟

ـ أنها ابنة المرحوم اليس كذلك؟

أخذت تحدقه بنفس ثملة من فرط الحيرة ثم غمغمت بعد صمت:

ولكن أبنة المرحوم رأيتها في الغرفة في التو واللحظة.

ـ أنا لا أقصد تلك. . ولكنها ابنته الثانية.

ـ وما الذى ساقك الى هذه الظنون؟

فقطعت حبل النقاش الدائر بينهما تلك النحيلة بعد أن استعادت هدوء أعصابها. .

ـ أنا شيخة بنت علي

الأرملة: انها شيخة زوجة محمود

بنبرة لاهثة:

من . . ؟

الأرملة: امعانا في التأكيد:

زوجة محمود الذى يعمل في شركة التأمين.

ـ اذا الأمر على نقيض ما تصورته. . أنا أسف جدا لهذا الأزعاج. .

* * *

عندما عاد الى مكتبه أرسل في طلب الملازم خالد . . وهمس بضع كلمات في أذنـه ثم أنكب يعيد النظر في القضية الجاثمة على صدره كالحمل الثقيل . . واستخـرج من بين ثنـايا تلك الأوارق والتقـارير المنشورة على منضدته بضع أوراق . . ثم هب واقفـا وأخذ يتأملها بتمعن . . وفجأة انهالت عدة طرقات متتالية على الباب . . واذن للطارق بالدخول .

كانت الصرامة جلية على وجه محمود حين أدخله الملازم خالد وما كاد أن يجلس حتى هتف قائلا بنبرة اكتسبت ثوب الغلظة :

انه لمن البشاعة ان اقتاد بالقيود الى هنا وكأنى اشعلت الدنيا بنار جرائمى . .

فحملق عادل في وجهه كالمأخوذ من قوة صوته ثم غمغم :

انك تدرك معنى تلك القيود .

ـ لو كنت كذلك لما تساءلت . .

ـ أنت متهم بقتل المدعو سليمان .

فهب واقفا كمن هزته كية نار .

فدعاه عادل بالجلوس . . ثم أردف قائلا

وأنت متهم ايضا بتحريض زوجتك بسرقة قسيمة التأمين والوثائق الخاصة بها من بيت المرحوم . .

فأطلق محمود صيحة باطنية رهيبة فقال عادل :

أهدأ والبقية تأتي . .

واستطرد قائلا :

وانك متهم بتحريض زوجتك بانتحال شخصية ابنة المرحوم .

ـ أنى أكاد أفقد عقلى من أوهامك . .

ـ وانك متهم باختلاس مبلغ ستين الفا.

ـ لم يعد عنقى كافيا لتغطية تلك الجرائم. .

ـ وانك متهم ايضا بالخيانة الوظيفية. . حيث استغليت منصبك كموظف في شركة التأمين. . ودبرت أمر الصرف. .

تأفف محمود وأخذ يلوح برأسه. . وقد تصاعد الدم حتى منابت شعره وغدا وجهه أشبه بالبسرة الحمراء وغمغم بلهجة صارمة يشوبها التكلف والسخرية المصطنعة:

يبدو أنك خيالى. . وهذا الخيال الخصب جعل منك أستاذا في ابتكار الأوهام والأساطير.

بلهجة هادئة:

لا بأس. . لكن قل لىّ اين كنت ساعة وقوع المشاجرة بين ارملة المرحوم وسائق السيارة؟

ـ لم يعد عقلى قادرا على التذكر. .

ـ سوف اساعدك. . كنت جالسا امام البقالة الواقعة امام بيت المرحوم اليس كذلك. .

ـ لقد قلت لا أتذكر لأن ذهنى جمد من غلظتك. .

ـ ألست أنت الذى قمت ومسحت بيدك على ظهر السائق وطلبت منه مغادرة المكان. . ووصفت أرملة المرحوم له بأنها أشبه بالذئبة المفترسة. .

ـ ربما

ـ بل كنه الحقيقة.

ـ ولكن ما دخل ذلك الموقف في الأمر

في تلك اللحظة لاحت في آفاقك ساعة الظفر . ونشط بركان الجشع القابع في أعـماقـك . . فقـد أيقنت بأن الخطة التى طالما سهرت في الليالي الهاجعة برسمها . . قد أينعت بالمعنى الحرفى للكلمة . .

فعلى ضوء المشاجرة التى وقعت أيقنت . . بأن السائق سيرتكب حماقة ما في ذلك المساء . . أو بعده وبقيت تراقب البيت حتى خروج المرأة . . وقد لعبت الصـدفـة دورهـا . . فابتسم لك القدر . . عندما اقتحم خليفة بيت المجنى عليه . . تأكد لك بأنه مقدم على الأنتقام نيابة عن راشد . . لأنك كنت تدرك أواصر المودة التى تربطهما بحكم معرفتك للأثنين . . وشاءت الصدفة أن يدخل المرحوم في تلك اللحظة . . وبعد أن تأكد لك خروج خليفة . . وما تبعه من الصمت الـذى خيم على الـدار . . أيقنت بأن شيئـا ما قد وقع . . فجازفت بالـدخول من الباب الخلفى للحوش . . وخاصة بعد أن تلألأ لك الحظ . . بخروج الفاعل من الباب المقابل للبقالة . .

فوجدت المجنى عليه مغمى عليه . . ومن فورك كتمت انفاسه بكلتا يديك . .

فحملق محمود في وجه النقيب بوجه مضطرب وعينين زائغتين . . ثم تمتم بنبرة السائل :ـ

ولماذا أقتل رجلا بائسا لاحول ولا قوة له؟

ـ من أجل ستين الفا سببت لك الأرق . . والسهر وأقلقت مضجعك حتى استوليت عليها .

ـ لو كان هدفى الاستيلاء على المبلغ لما قمت بأبلاغ أرملته بأمر القسيمة .

ـ ذلك كان امعانا في التضليل وأبعاد الشبهات عن نفسك . .

تنهد من أعماقه وافتر ثغره عن ابتسامة صفراء.. ثم اردف قائلا بلهجة المتحدى:ـ

ـ عموما انك لا تملك دليلا ماديا تديننى به.

تراجع عادل الى الخلف.. وتناول من فوق منضدته ظرفا ثم قال: اتعرفه.

ـ أنه كأى ظرف.

ـ وهل الورقة التى بداخلها كأى الأوراق؟

ـ وما أدرانى بالمكنون؟

فك عادل الغلافة.. واخرج منها الورقة وعرضها عليه فأدرك الآخر ماهيتها.. ثم غمغم باستغراب:

انه عنوان صديق المرحوم الذى طلبته منى عند زيارتك للشركة..

ـ ولكن هناك حقيقة اخرى غفلتها.

ـ ماهى؟

ـ انك طبعت عليها بصماتك.. وهى مطابقة لبصماتك التى وجدت على وجه المجنى عليه حين كتمت انفاسه.. فقد خانك الحظ حين غفلت ارتداء القفازات..

فانطلقت دقات قلبه كالبرق المجنون.. ورددت جوانحه صداها فبرز في التو واللحظة طيف المقصلة وحبلها الخشن.

فهـــرست

صفحـة

رقم الايداع ٨٢/ ٨٧

المطابع العالمية - روي - سلطنة عمان

هذا الكتاب

يعتبر هذا الكتاب الاصدار الثالث للقصصي أحمد بن بلال بعد مجموعتيه القصصيتين «سور المنايا» و «وأخرجت الأرض. . .» وفي هذه المجموعة يغوص الكاتب في أعماق المجتمع ويميط اللثام عن عدد من الظواهر الاجتماعية في قالب قصصي مثير. وتضم المجموعة خمس قصص تأخذ طابع القصة البوليسية، كما جاء في وصف الدكتور أحمد درويش في تقديمه للمجموعة.